ليله الفاوي

المدقق: رباب محمد رجب المصمم: مجد مجاهد

مقدمة

فشلت كل المفاوضات، لم تكن إثيوبيا على نية لأي مفاوضات من بدء قرار بناء السد، ولم تكن مصر على استعداد لخوض تلك الحرب التعيسة وإن بدا الإعلام يظهر الأعاجيب فالنتيجة كانت خراب وتضحية بالأرواح طالما يساندونهم هؤلاء الذين انتزعوا اسم فلسطين من خرائط العالم مغتصبين كل الحقوق العربية أمام صمت أهلها المخزي، ومن خلفها تحميها الأم الودودة المنافقة بحرية الشعوب قمئة في حقيقتها، عظيمة العالم بنفاقها، المدللة لها، والأعظم الخبيث تلك الرؤوس السوداء خلف الضباب، فبالتالي أسخط الله نفوسهم بمشاركتهم في بناء السد، سدّ كل غايتهم به الضرر بمصر فحسب، كما يتعهدون دومًا وسمحنا لهم بالتمكن دون وعى للف ذلك الحبل المجدول بالضعف والتخاذل حول أعناقنا، وقد حدث! فكان لأثر السد التعيس ظهور وجه لم نعهده على قوم اعتادوا الخير والنعيم، وجه بائس، متحسر، لا حيلة له، فبارت الأرض، وجف زرعها وقلت الموارد وبات كل شيء أسير قطرة ماء، وعادت الحياة كبدايتها يلهث الجميع للعيش فقط، فتقسم الأفراد لجماعات حسب الدم، وما يقدمونه من ولاء للحصول على حصتهم التي باتت ككسرة خبز في مجاعة؛ جماعات تحمل أسلحتها للمقاومة إن اقترب عدوٌ يلمس ماءها، فدافع من دافع وقتل من قتل بجرم العطش

حين تصرخ البطون تخرس العقول، وحاول المسؤلون إنقاذ ما أمكن ولكن... لم يكن لعيونهم المنطفئة وأرواحهم المنهكة والخوف من الموت إلا الفزع فلم تعقد الحزمة، وفي بؤس متسلسل حلقت من جديد بانقلاب الزمن تلك القبائل، ودخلت أخرى لا أصل لها

وصار العدل كما الأرض، وطالت الأعاجيب المفزعة أرض الأمان، وصار القوم في انشقاق.

هكذا تمت.

.

لم تكن ترغب بالمجيء، لم تكن ترغب أبدًا، هذا الجو العائلي المؤسف الداعي للتأفف، باطنه الخلل، ظاهرة الروعة، ولكنه كأي صورة عائلية ترسم ملامحها النفاق، ابتسامة للقطة الصورة العائلية المترابطة تخفي الكثير من الصراعات والعطن خلف كواليسها، تفضحها رائحة العفن، وإن جاهدوا لإخفائها. صورة غير سليمة كوضع بات محنقًا. تتساءل بأسى، أي زمن أسر فيه شبابها!

لا يمكنها الاستمرار في نسج خيوط متشابكة إلى حد التعقيد.... كم يبدوا الهروب كنز، حرية لا حق فيها لأي أحد يسكن هذه الأرض، وتضيق الأرض بها أكثر بهالة أضيق لتكون من ضمن هذا الإطار المؤسف، لم تعد تهتم أن تكون فردًا من تلك الحلقة للحصول على حصتها من الماء، وإن ماتت جوعًا وعطشًا كل ما يهمها هو إيجاد العذر دوما لغيابها عن كتلة النفاق هذه والهروب من الإطار الأحمق الحانق، هل كانت لها أهمية أو لا؟ فقط حفاظًا على زاوية كاملة لشكل نفاقهم، حتى في أحلك الظروف؛ همهم شكل مميز للنفاق، لذا لم تكن ترغب بالمجيء، لم تكن ترغب أبدًا في مشاركتهم شيئاً، ولكنهم سيملؤون دفاترهم بتوقعات غيابها وغالبًا سينتهى الأمر باتفاق... الغيرة.

تنهدت من أرجاءها وهي ترفع عينيها الذابلتين اليائستين في موجة الحر وغبار الطريق، تتطلع بضيق للمقاعد أمامها داخل السيارة وهي أقرب لحافله سفر شبه ميتة إصابتها الطريق بكدمات عدة جعلت منها خردة تحتضر قبل أن تنفق بهم، بليت بضربات الطريق لينتهي أمرها علي هذا الحال المضني، رسائل حب وأرقام هواتف شبه مكتملة يعقبها جمل قصيرة تافهة مشجعة، ملصقات دينية وأخرى مكتوب عليها أغنيات لنفس صاحب الصورة المرفقة بها أسبلت أهدابها وهي تستشعر حركة الحافلة المقلق ولكن ربما لانطوائها تستشعر كل ما هو عادي بطريقه ذات أهمية، بينما كان أفراد الأسرة المحشورين حشرًا منهمكون بأحاديث تقتطعها ضحكات ممتلئة، مغيظة، متشفية، كل مقعد كحارة يدار فيها الكثير بينما مقعدها الأخير كبيت غربت فيه الشمس و أفراده الثلاث بينما مقعدها الأخير كبيت غربت فيه الشمس و أفراده الثلاث المزعج؛

تحاشت النظر إليهم داعية أن تنتهي الطريق سريعاً إلى منطقة استولت عليها قبائل أخرى غير عادية كما كذب خالها الأكبر الخبر، وأفرغ صيحات ليقنعهم بأمان الطريق.

لم يرق لها ما سمعته سواء حقيقة أو كما نفي الخال عنها، قلقا تعلق بخيط استفساراتها المعلقة ولكن لم يمنحها أحد أذنه للاستماع، فقط هم يريدون تزويج البنات والزغاريد والاحتفال الصاخب برغم كل شيء،،،

سيظل هذا الشعب كالعادة متجاهلا لكوارثه أمام حاجته للتزاوج، أشفقت علي حال أمها التي جذبها الحديث فشاركت على استحياء، أنها دومًا تفعل ذلك تشارك على استحياء في شئون عائلتها المرموقة كما يظنون بكثرة أحفادهم وانتشار ذويهم في كل بقعة، تنظر إليهم بعيون نقص حال، إنه الزوج الفقير المعدم المقرف يمحض من شأنها حتى أباد عزتها بينهم لتشاركهم باسم الخالة بينما داخلها تدرك الرفض والقلة، ترفع عينيها لابنتها الكبرى التي تركت كل شيء حتى شعورها بالحرج بينهم لاصرارهم على حديث الزواج وما حقوا من إنجازات في هذا الشان بتزويج كل بناتهم قبل الخامسة عشر بينما هي تعدت أواخر العشرين. وأسباب أخرى...

تتطلع إليها أمها بأخر الحافلة، نظرة شاكرة ضعيفة ترجمتها الفتاة سريعًا لتفكر...

"لا بأس يا أمى، أنا جانبك."

تنحدر عينيها لأختها الصغرى وهي تضحك بملء ثقة تستمده من بطنها المنتفخة وهي تُمسد عليها تشاركهم أحاديثهم عن فخر الوصول لمنصة الانتصار أو الزواج. على الأقل هناك جزء من والدتها يشعر بالاندماج وليس مجرد فائض عن الحاجة كما هي تشعر،،،

ازدادت الطريق حرارة بتقدمهم والسائق يتأفف عابس الوجه عاقد الحاجبين بشكل غامض هي تعلم أنه لم يرغب بالعمل في تلك الرحلة المضنية لولا إصرار خالها صاحب السلطة كما يظن لأنه يملك حق التصرف لإخوته في حصة الماء.

قال السائق بوضوح "أنه يقلق من بلاد لا يوجد بها طرق"

لم تعلم مقصده هل هي الطرق ولكنه ربما عنى أنه لا يوجد بها سيارات! فلم تلتقى أي سيارة منذ دخولهم لأجواء هذه البلدة.

خطف نظرها ركض مجموعة من الأطفال ليتلاشوا خلف كومه من الخردوات في جانب الطريق طريق وعر، عيون تتلصص من خلف حجابها المهرتل، نساء كنساء تلك القبائل التي تفعل الأعاجيب لمجرد العادات؟

اشمئزت من فكرة التقتها يومًا وهي تتصفح الإنترنت أن رأت نساء يثقبن أنوفهم بحلقة نحاسية كعادة سخيفة يتبعها كل النساء، ماذا يفعل المرء بنفسه لإتباع قومه؟! يتخلى عن عقله؟! إدراكه؟!! وتهكمت من الفكرة أو نفسها أنها تفعل كذلك، كما يفعلون تتبع بجهل كإتباع الغنم! إنهم كذلك، فجاءت إليهم تلك القبائل الغريبة تولد الجهل أكثر فبات الجهل والجوع رفيقين في البلاد

لكن، هناك مع هو غير مريح خلف ميلهم لبعضهم عقب التقاطهم الحافلة؛

حاولت ابتلاع قلقها وهي تعيد التطلع لأفراد العائلة المندمجين في حديثهم حول الزفاف؛ زفاف الأميرة ديانا كما يتأهبون له.

لقد سمعت أن أبناء الخالة سيرتدون فساتين قيمتها ما يعادل مرتبها لعامين كاملين. لا تدري لما ابتسمت ساخره؛ لا تعلم حقا هل عليهم أم عليها؛

ابتسامة التقطتها عيون مميزة واسعة بتعالي واضح وأنف يلق باحترافية تعاليها وهي تضم ميدليتها أو ابنتها لتقول بغرور:

_"لا أظن أن هذه القبيلة ستنام الليلة، مما ستشهده من فخامة زفاف لم يرونه مسبقًا."

ضحكت أختها البيضاء القطنية التي داعبت رضيعها بشكل محبب وهي تضعه في حجر أمها وهي تقول:

_"فلتريهم يا رجاء كيف تكون الأفراح، أو بالتحديد الجمال فينا"

تدخلت أخرى ذات شامة تعلو أنفها زادتها حلاوة، لها ابتسامة مميزة بشكل جذاب، كساها الخالق ببشرة موردة تحلي عيونها العسلية بدت حقًا ساحرة وهي تقول بأسف "أنا أشفق عليهم تلك الفروق تؤلم يا يسرا"

ضحكت يسرا وداعبتها بالقول المعجب" يكفي أن تذهلهم فتانتك يا نجوان".

عقدت المراهقة جانبهم ذات الملامح الطفولية حاجبيها تلقائيًا، ترمق الفاتنة بحقد دفين، بدت حقًا نجوان فاتنة بشكل خاص، جذابة بمبالغة، براقة، لم تتأثر من أثر الطريق وتتحول لوحش مثلهم؛ فزمت شفتيها بحنق وتلقائيًا لمست كف يسرا ف أسرعت تخبأ ما ظهر منها لتقول لها بإعجاب مستتر "أحببت خاتم زواجك يا يسرا" بابتسامة جانبية متعالية أجابت يسرا وهي تسحب كفها بتعالي كما تتصف.

لقد أصريت على هذا يا ميسا، هو يحبني لذا وافق سريعاً برغم ثمنه؛ وألقت نظرها بعيدًا أخر مقعد بالحافلة في تعالى ظاهر وهي تضيف:

_"الرجال تتهافت عليَّ فانتقيت أفضلهم"

وابتسمت ابتسامة سمجة وهي تقول لذات العيون الذابلة اليائسة: (العقبى لكِ يا سلمى)

حدجتها سلمى بنظرة عابسة تحولت سريعًا لمترفة أعقبتها بتنهيدة متهكمة وهي تهز رأسها تعيد التطلع للعالم الآخر خلف زجاج الحافلة تتساءل داخلها بإلحاح: متي ينتهي هذا!؟

اتفقت نظرتها مع نظرة السائق المعكوسة عبر المرآة، بينما يعلو شخير رمزي المراهق جانبه، هناك ما هو مقلق لا يرتاح له قلب السائق المتأفف طوال الطريق لم يكن لأحد وسط هذا الهرج أن يلاحظ معالم الترقب لوجهه برغم طفوه، بينما كانت سلمى أقرب لهذا الشاطئ الهائج تتبعًا، تضيق عينيها مراقبة، تراقبه باهتمام عبر المرآة تلتقط إشارات قلقة ثم تبررها لنظرات هؤلاء النسوة على جانبي الطريق وأطفال كسحالي الجبال تقف متسمرة وسريعًا تركض وتختفي وآخرون يقفون تحت ظل البيوت كمصاصين الدماء يخشون أشعة الشمس الحارقة، لتتراجع بمقعدها بتوتر عابس شامخة بذقنها لنظرات تستشعر مراقبتها لها، تبتسم بتسلية متعمدة ارباكها، تفكر صارخه عكس ما تبدوا.

(الأحسن أن ينتهي هذا سريعًا)

تمنت داخلها أمنيتها وأعقبتها بشعور الشفقة تجاه العروس الصغيرة المنكمشة انكماش طفلة تجهل التالي، هالة - أصغر بنات الخال؛ إنها لم تبلغ بعد السادسة عشر، ستلتقي هناك ببهجة ليس بمحلها لمجرد لقب المتزوجة حتى وإن كان في عمق الغموض. ارتسم على وجهها النفور من تلك الفكرة التي أصبحت تطاردها والداهية أنها تتوارث بعكس الزمن.

تعلقت فكرتها الأخيرة مع وجه الرضيعة، تترقق نظرتها إليها بمحبة خالصة .

(ليس من العدل أن ينبش حلم جديد بفكرة وريثة غبية)

كانت يسرا تداعب الطفلة في حجر أمها، الطفلة قد التقطت نظرة سلمي لرضيعتها فاشتعلت نظرتها لتلملم ابنتها عن مرآي سلمي.

لم تكن المرة الأولى التي تفعلها لذا لم تبالي سلمى كثيرًا وهي تعيد النظر للجحيم بالخارج.

تلك القبائل التي انتشرت بشكل فج غير مريح كأي قبيلة مما تذكر تحمل العادات والتقاليد وبعض الخرافات وكثيرًا من الجنون مثل قبيلتها، تذكر مرة أن رأت مهاجرًا إليهم آتيا ليعمل نفس عملها في مدرستها الوقور هي بعض الأوراق تحتاج للتعديل والترتيب؛ عمل لا دراسة له يومها رأت تلك الندبة البشعة في وجهه كما لوكان قد تعرض للتعذيب؛ فعرفت إنه تزوج للتو!

من بعض الألسن التي بحثت خلف ذلك. تلك عاداتهم لاختبار التحمل سؤال يعرض على وجهه؟ هل هو مؤهل لبناء عائلة؟! وتلك الإجابة نراها. لا بأس.

لقد أصبح كل ما يتعلق بالزواج أمرًا خفيًا مرعبًا.

تثاءبت! وتساءلت كيف يمكن لها أن تتثاءب أثناء هذا؟!..

في الحرارة تزداد انفعالا والأتربة تصنع بابًا من أبواب استقبال الجحيم.

ربما هو تثاؤب الملل الذي طفى علي ملامحها. لقد مرت أربعة ساعات على نفس المشهد البائس.

تريد فقط الاستيلاء على سرير مريح أو حتى حصير أعلى منزلها بعيدًا عن كل هذا الجو المفعم بالحب والود تفرد فيه جسدها بعيدًا عن المقتولين جانبها. هامسة أخيرًا بنفاذ صبر.. أوف.

تثاقلت أجفانها، قاومت النعاس باستماتة، قاتلت رغبتها كما اعتادت، حتى هاجمها بقوة لتسقط رأسها مهزومة جانبًا، ثبتت عينيها عن الارتعاش لتقع في غيبوبة نوم عميقة. برغم انتباهها السريع لحركة حادة بالخارج إلا ان أنها استسلمت تمامًا لتستقر في قاع النوم متربعة.

حرارة، أتربة، لهاث، صراخ.

اعتدات بغته تشعل بشدة كجثة تعود للحياة وهي تنفض خيال الأتربة حولها تحاول رؤية ما خلف خيالها بوجه باهت وحلق جاف؛ تصارع لالتقاط أنفاسها حتى استقرت عينيها بعد تلاشي تلك الغيمة على نفس الوجوه الساخرة البالية المتسلية بتضجرها فزادها الإرهاق ضيقًا حتى منحتها تلك اليد العجوز بعض الرأفة وهي تسألها:

أتحتاجين الماء؟

أومأت برأسها وهي تتحسس من وجه أمها بعض حنانٍ يعينها على التحمل، تتجرع الزجاجة كلها مرة واحدة برغم العيون الثائرة نحوها؛ عيون تترقب بدقة تدفق الماء إلى حنجرتها غير مبالين

بدفاع الأم المستميت وهي تقول بصوت ضعيف مدافع: تلك حصتنا!.

لكن سلمى لم تبالي بل كانت تلك النظرات هي دافع للشراب أكثر.. كم ممتع أن تقهر أحدًا على شربة ماء! وقبل أن تودع الزجاجة شفتيها بتشفي سألت أمها بتجاهل لعبسهم: هل وصلنا؟

هنا تطلعت لصوت بلغ من الضيق آخره و هو يقول:

وكأن الحافلة تتلكأ تحذرنا من الجحيم

تمتمت بتوتر وكل اهتمامها نحوه

_جحيم!

مال السائق جانبًا وهو يحدث نفسه بارتياب اعتلى له صوته حتى مسامع المقعد الأخير فبدا في قمة توتره وهو يضيف:

_نحن ف قلب الجحيم يا سادة. تلك قبائل لا أمان لها، أي عقل منحكم الله لكم لتتخلوا عنه قبل القدوم إلى هنا؟!

استطاعت بتركيزها أن تلتقط كلماته التي أضحكت أغلب أفراد عائلتها والصغير ذو الست سنوات يهتف وهو يهب من مكانه بشقاوة:

(لقد تعبت أريد النزول)

أوقفته أمه لتعيده مكانه وهي تقول:

عُد لمكانك يا خالد، تبقى فقط القليل.

صرخ: (منذ ساعات تقولين القليل! لقد مللت)

تابعت سلمى نقاشهما في شرود بينما حمدت الله أن الأختين الظريفتان قد تعمقا بالنوم فمالا بشكل لا يوحي ببشرتيهما، ولكنها عادت تتطلع للخارج ثم إلى ساعتها تهمس بحيرة؟!

مرَّ سبعة ساعات!

وفور انتهاء همساتها الحائرة، توقفت الحافلة بشكل مفاجئ زلزل الجميع وضاق المكان بغضب أفراده بينما تعلقت عيون سلمى بالسائق الذي جفت الدماء بوجهه المعكوس بالمرآة وهو يرفع يديه عن المقود لتتعقب السبب... كان هناك رجال يحملون عصا برأس مُدبَّبة يشيرون له بالنزول وتعالت الأصوات التقطت منها تعليق نجوان البرئ.

حتى هنا ستجد التباع

عادت تراقب السائق الذي تخلى عن مقعده بتوتر بلغ أخره حتى أن خاتمه ذو الرأس الأزرق سقط منه فعاد يعيده إلى يده بارتباك شديد أو هو هلع متوقع من تنبؤاته، انسحب بعيدًا معهم بعد أن دار بينهما نقاش قصير بان على ملامح الرجل أنه يواجه محنة يلعن فيها السبب في قدومه إليها؛ عذاب اكتسي وجهه و هو يستسلم لإشاراتهم المنفعلة، وجوه سوداء أو ملثمة أو أخرى بلا تعبير تقف تتصنت الأحداث بينما اعتلى الاعتراض بين أفراد العائلة ليصيح الخال الأكبر بكل عنجهيته: ما الذي يجري؟؟

ونفخ عرف الديك فيه واعتلى صدره وشدت عضلات كتفه وأحمر وجهه باحمرار الرجولة المؤقتة وهو يقترب إلى الباب

لكن سرعان وإن تسمر أمام إشارات الصبي الأسود الحافي ذو النظرة المريعة يسأله العودة.

تطلع الجميع لبعضهم في تساؤل تحول لكلمات و(مسرة) زوجته تسأله:

_هل هم لصوص؟

أشار لها بالصمت وقد استعاد رجولته المفقودة هناك في وجهها ليقول:

_ اصمتي أنهم مجرد تباعين طرق، سيتعامل السائق يحيى معهم، فقط لولا تجنبي للمشاكل في رحلة الزفاف لكنت لقنتهم درسًا قاسيًا، هؤلاء المنحرفين.

مطت زوجته شفتيها على جنب بحالة متهكمة خطت محياها تحاول تمريرها ولكنها لم تنجح وقد غلب كيدها على حكمتها وهي تسند رأسها على كفها بشكل أخافه من القادم وهي تقول له:

فقط أنزل تقصى الخبر واعيده وإلا قُد بنا أنت الحافلة يا رجلي.

للزوجين دومًا طلاسم لا يعلمها سواهما لذا فلم يكن لأحد أن يتجرأ على إخراسه سوى تلك النظرة التي ذم لها شفتيه بحرج، فغليَّ الدم في عروقه، نظرة اسكبت على رأسه حمية دفعته ليعيد المحاولة، بذات اللحظة كانت إشارة الفتى لهم بالنزول أسرع وسرعان ما فهم الجميع إشارته ليتخلوا عن مقاعدهم بالحافلة الرديئة ويقفوا صفًا كتلاميذ المدرسة الابتدائية بأول يوم، بينما تابعت سلمى المشهد

كالعادة ف صمت تترقب شأن السائق الذي اختفى خلف أكوام من الخردة؛

تتسائل بإصرار وقلق أين أخذوه؟

لكن كما توقعت لم يهتم أحدهم إلا ببلوغ الراحة والسخيف ابن الأنقياء المراهق (رمزي) ذو التاسعة عشر بشعره الملتصق بجبهته وجسده النحيف حتى كاد بنطاله يسقط منه مدعيًا أن تلك هي الموضعة وليس فقر دم شديد؛

يتأفف لهم قائلًا: هل وصلنا لبيت العروس الجديد؟! لقد انتهت طاقتي.

إشارة واحدة من أمه اخرسته فعاد يتمتم باعتراض لحفظ ماء وجهه الذي بلل ثيابه للتو، بينما أسرعت سلمى تستند أختها أميرة وهي تشير لأمهما للاقتراب من مجموعتها، فأطاعتها كطفل صغير ترتمي بالقرب منها، لازالت سلمى تحمل مقام الكبرى فطواعية استسلما لها وهي تخصهما بالرعاية بينما انتهى الجدال بمرشد ذو سيقان تشبه فروع الشجر المحروق يتقدم ليرشدهم إلى مكان ما هو بيت العروس كما يعتقدون.

مائة وسبع وخمسين خطوة شاقة حتى وصلوا إلى ذلك المبنى المستطيل ذو السقف المثلث يشبه بنايات الثمانينات للمصانع، هو مستودع بالأحرى، طقس كئيب، هواء مختنق وجوه بائسة، كل شيء يحتضر حولهم، لا وجود للحياة هنا، فلا وجود للماء، فليكن؛ تمنت أن يكن أي شيء يمكن الاسترخاء فيه لأجل أمها التي تمنت لو أمكنها حملها وهي تتحامل على نفسها تتمنى ألا تخذلها قدمها

فتسقط بالرغم منها، كذلك تلك التي أمسكت بطنها مع كل خطوة وكأنها تخشى السقوط منها، تستطيع التعرف على إحساسها بلى تستطيع وهي تسند أمها جنبًا إلى جنب تخشى سقوطها المتوقع. لاشك أنه نفس الشعور!

كذلك لا شك أنه ليس البيت المقصود، أنه يشبه المستودع،

تتناثر فيه بعض الحاجات كاستراحة ليس إلا... أغطية وبعض السرائر وهناك حجرة منزوية برأس المكان يحجبها ستار، وعلى الجانب براميل كانت لتشك أنها للماء لولا الرائحة النفاذة للغاز.

تقلق من جديد وتعابير غريبة أشبه بخليط من الخوف والغضب والحيرة ونظراتها تحوم حول كل شيء تهتف بتوتر واضح:

_ لا أظن أنه بيت العروس!

لم يبالي أحد بتقريرها بل دفعتها (مسرة) جانبًا وهي تهتف:

لن أخطو خطوة أخرى حتى تأتوا بسيارة وإلا عليكم حملي

عدلت يسرا ابنها على كتفها وهي تقول بتعب حقيقي:

"الصبي تعب كذلك وأنا على أخري"

تقدمت رجاء وتفحصت المكان بترف قائلة:

_أريد الاستحمام من عفر الطريق والسيارة، أشعر بطبقة أتربة على جسدي.

استسلمت أم سلمى لتجلس جانبًا تهدئ ابنتها أميرة للجلوس، وتركهم يتفاوضون لكن سلمى اشتدت ملامحها وهى تقول بدهشة:

_"لا يمكننا البقاء بمكان مجهول، السائق لم يذكر أننا وصلنا بعد، هذا المكان ليس آمن،"

عادوا لتجاهلها ولكنها خصت نظراتها لأمها وأختها مقتربة بانفعال:

لا يمكننا البقاء أمي، هذا ليس المكان المقصود!

لم تمنحها الاهتمام رغمًا وهي تستعيد أنفاسها المرهقة تتجاهلها بقولها البسيط:-

_أكاد أموت عطشًا، اسأليهم بعض الماء.

اشتدت ملامح سلمى غير مصدقة للامبالاة أمها ولكنها سريعًا تراخت أمام ضعفها مستسلمة لحاجة أمها فأخذت خطواتها تجاه حقيبتها تبحث عن حصتهم المحمولة وهي تمتم غاضبة:-

_هؤلاء قبائل هاربة مهاجرة ليست مصرية أنا واثقة يبدون مثل" ابتلعت كلمتها الأخيرة شاهقة بهلع عندما اختطفت منها قربة الماء فتطلعت للفاعل بغضب مضاعف وهي تصيح بشراسة:

" هذه حصننا ِ"

ادعت رجاء العبوس وهي تقبض على القربة تميل برأسها لمزيد من لفت الأنظار وهي تقول: لقد تجرعت زجاجة كاملة بالحافلة، عليكِ التوفير وإلا ستبدئين بالتوسل منا قبل نهاية اليوم.

عادت سلمى تخطفها منها وهي ترمقها بنظرة نارية بغيضة قائلة بقوة؛ لم أتوسل أحدًا يومًا ولن أفعل.

وازدادت نظرتها اشتعالا وهي تضيف:

_"الماء كان لأمي، ابتعدي."

دفعتها جانبًا وهي تتجازوها بحدة، بينما كادت رجاء أن تقع أرضا وهي تعيد إتزانها صارخة

- أيتها التعيسة الغيورة.

احتدت خطواتها تنهر نظرات الجميع بعيون غاضبة يواجهونها بعبس مرهق تعض شفتيها بقنوط، شيء ما ينبؤها بخطر، كان للامبالاتهم عنوان.

انتظرت دورها طويلاً أمام هذا الستار الذي اتخذوا ما خلفه بروفة لتغيير ملابسهم بعد إشارة ذلك الأغبر أنه سيتم نقلهم للزفاف... وأخيرًا دخلت وعكس ما فعلوا خرجت بعد عشر دقائق بفستان أزرق بسيط يغطي ساقيها، له ياقة مطرزة من نفس اللون تحلى بحزام أبيض ملفوف حول خصرها النحيف تمرر يدها حول خصرها واجمة التعبير عيناها شاردة تفيض بإحساس الفقد والعزاء، فقد يعذبها مقاومته، فتعزي نفسها كلما أتتها تلك الذكرى المخذية، دب بقلبها فجأة دون إنذار حزن دفين، أحست بالانهيار، تهتدي إلى أقرب جدار في حاجة للإتكاء تستند إليه بانهزام عينيها تطوف حولها سريعاً بخوف تخشى الانتباه، توقفت تتطلع عبر تطوف حولها سريعاً بخوف تخشى الانتباه، توقفت تتطلع عبر النافذة نظرة بين الخط الفاصل بين السماء والأرض ليتشوش ذلك بأمواج حبيسة في عينيها ظهرت من اللامكان.

دموع خائنة ترفض أن تنصب، لقد أوهنها هذا كثيرًا بحيث لم تعد تدري كيف تساند نفسها، كيف تشكوا؟! كيف تقنع نفسها بكذبة كلمة ،،، أحبك،،،

مسحت دموعها سريعًا، تهاجم نفسها بطرد الضعف تعود للتطلع بعيون صامده مقاومة

الوان كثيرة مبعثرة فجة... حتى ذلك الطيف الأبيض يرفرف أمامها كحلم كان يومًا سيتحقق، كان على قرب لولا بشاعة صاحبه، وتهاوت الذكريات على رأسها كضربات متتالية أغمضت لها عينيها بقسوه، من بداية رفرفة جناحيه حتى اكتشاف قرني الشيطان فيه، وانهارت عزيمتها مرة واحدة تتشبث في قوة أخيرة سمتها (جيد أن ظهر على حقيقته باكرًا) ترجف عينيها كأنها تقلب صفحات ذاكرتها، لم تعد تحتمل ذكرى يومًا التقت ذلك الوسيم قبل أربع سنوات، لم تنسى، لم يمر شيء، لم ينطفئ الاشتعال، سنوات خاطرها يأبى النسيان، يتخذ من ذكراه وسيلة لتعذيبها، تتذكر ببرود قاتل وقسوة رهيبة تعمل على إزهاق روحها، تتوسل كرهه كما تمنت، تلك الأيام البعيدة القاسية بتفاصيلها الوعرة، بزيفها

يوم أن التقته، معدًا لها حب مزيفًا، فظنت أنه أجابه ذلك الدعاء بالعوض ونتيجة الصبر، فبدا الملاك المتيم هدية القدر، من يتخيل أن يقع بحبها رجل بمثل طلته في حبها!

هيئة متواضعة، نفسًا مهزومة، ووجها شحب من الإحباط. من يتخيل! لذا فإنه لا شك هدية إلهية تتلقاها أو ...

لعبة حلوة يستمتع فيها بمشاعر عطشة متخبطة مكتومة تكتم كل شيء لغد؛ كل المشاعر تندفع مرة واحدة تدسها لمن ظنت إنه الملجأ تجردت من نفسها إليه، كلماتها عن الخذلان، حروفها المحروقة بالحاجة، شغفها تجاه نفسها وإليه، انفعلاتها الصادقه اليه وبه، خوفها من الألم، لم تعرف كيف تسيطر على ذلك الوميض، لم

تمنح نفسها ظن الخبث تجاه هديتها فغلب ظنها الخير علي الشر، حديثها المستعطف إليه كي لا يفعل. وفعل!

جاءتها الصدمة من الغفلة!

ملْ فغادر تاركًا روحا تحترق خلفه يشم رائحة احتراقها فيبتسم، يرضي نقصه، ودناءته، كان متعمدًا أن يفعل وما السبب ما الدافع ليفعل؟! لا شيء هو لن يدرك حجم جرمه إلا لو كان مكانها،،،

هذا فستانك أم استعرتِه؟!

رفعت سلمى عينيها اللامعتان بالدموع في جوف عينيها تحدق في وجه يسرا وصدرها يعلو ويهبط تتشبث بأخر قطرة من الصبر قبل أن تندفع تغادر المكان، ومن خلفها يسرا تتململ في وقفتها وتبرم شفتيها تفكر وهي تتطلع للفستان الأبيض بعيدًا ترش كلماتها الساخرة بتفكير

(مؤكد تشعر بالحسرة والغيرة تلك الحقودة العانس)

أخذت سلمى خطواتها للخارج ركضًا دون أن تشعر، فقط تريد الابتعاد عن عيون لن ترحمها من تفسيراتها؛ تفسير هو أخر إتهام حقيقي أو ربما هو كذلك بلى أنها تشعر بالغيرة، غيرة لا جرم فيها هي كأي أنثى تريد هذا ظلم المشهد لا يقتل براءة الطلب

مهما بلغ الطموح ستظل الأنثى بحاجة لوجود مشاعر يختصها بها الرجل، هل أصبحت الحاجة الطبيعية جرم؟!

جرم يهاجمها الجميع به وبدونه!

إحساس مزعج أن تتشتت في قلب أناس هم من يجدر بهم ترتيبك، إحساس يدفعها للحاجة للصراخ دون توقف حتى تتخلص من ركام اختزنته طويلًا فوقف الصبر على أبواب روحها يمنعها بشدة من الإفلات هل هو يمنحها الفرصة لترتيب نفسها أو التخلص من كل شيء دون أن تثير الانتباه أم لديه خطة أخرى ...

سالت دموعها رغمًا. تلك الفكرة المبهمة أراحتها. فقط تمنت أن يتولى أمرها آخر.

شعرت بتلك الكف الحانية فأغمضت عينيها لتقول دون أن تتطلع لصاحبها:

"أنا بخير نجوان"

كانت نجوان الابنة الثانية لخالها الأصغر رحمه الله فتاة بقلب جميل كما سمتها دومًا، جمالها الغير عادي، وقلبها جعل منها شخصًا أقرب للكمال بعين سلمى، تلك البشرة الصافية البيضاء والشفتان الورديتان، عينان تبتسمان تبرق فيهما الضحكة، جسد طويل جميل متناسق كم كانت تحبها أكثر مما تغار منها، فقد طغيّ لطفها على أي حقد لها من بين أفراد العائلة الكريمة، قد يدفعك النقد الكامل لان تحب من ينظر إليك ولو بنظرة شفقة، ذلك هو العجز بأبهى صورة، أن تتوسم الحب بالضعف، فهي على الأقل تحمل جمال غير زائل، بالنهاية هي تهتم بمن حولها وهذا يجعلها لحد كبير تتخذ شكلًا مختلفا عنهم، ربما كانت محظوظة أو ذكية أو هي حرية القرب دون حرج. فتلك الحساسية بينها وبين أميرة أختها الصغرى؛ دومًا تكون حائلًا يمنعها من احتضانها أو تقدمها إليها

لتلمس أطراف أحزانها وتكفكفها عنها، هي لا تقترب، ولا سلمى تحاول، ثمة مشاعر مختلطة، لا يمكن ان تكون كراهية لكنها نوعًا من الشلل الذي نشئا عليه، فلم يعتادا أن يظهرا مشاعرهما حتى لبعضهما أو تجاه ضعف إحدهما. فتقهر لأجلك، تغضب، تثور، بالجهر ولكن تبدو غير مبالية بظاهرها. تبكي بالخفاء لأن هناك ما يمنعك أن تظهر أي مشاعر هذا الهناك هو أمر قوي لا شك أن علم النفس لديه إجابات تُقرأ، بينما هي لا تستطيع إلا أن تشعر بها، أو ليس هذا يندرج تحت خط الظلم؟!

ألا تستطيع أن تقول أنا بجانبك؟! أنا هنا... وتحرر مشاعرك للأقرب منك حولك، أن ترتمي بين ذراعيه وتخبره كم يؤلمك تعبه، أن تبكي لأجله، أن تصرخ لألمه، أن تحرر مشاعرك تجاه نفسك وتجاهه .. هل هذا ما يجعل وجود حبيبًا لأجلك صعبًا؟!

ربما حجم مصيبتنا في تلك الدهاليز بأرواحنا وليس بزيف المحب لكن نجوان تستطيع أن تفعل لأنها هي نفسها حرة أما كلانا فيغمره شيء لا يرى ولكنه باغ .

هل تضايقتِ؟

همست نجوان الرقيقة بسؤالها، بدت للحظة مدعية الرقة من سخافة الوضع، لكن سلمى استدارت تتطلع إليها ترسم ابتسامة حقيقية شاكرة، تتطلع نجوان لمسحة الحزن على وجه سلمى وهي تجيب بصوت مبحوح:

"فقط الجو حار_."

حاولت نجوان أن تسترسل بالحديث وهي تضيف موافقة:

_"بلى، الطقس هنا كالجحيم، انظري وكأن الصحراء أنبتت بيوتًا، لا يوجد أي لمحة لأي لون حولنا. آه هذا مخيف. ولو نبتة تخفف بشاعة المكان!

تهكمت سلمى تضيق بعينيها لبعيد هامسة باهتمام" هذه ليست صحراء، هذا الجزء الشرقي يا نجوان، لم تنجح حفر الآبار هنا على ما يبدو، فعلى العكس، الغرب هناك لقى حاجته من الماء واكتفوا بحصتهم، تعلمين بعد تلك الحرب أصبحت حصتنا.

وغامت عينيها وهي تضيف بأسى: - "نقاط".

تأففت نجوان هاتفة:

" مرت عشر سنوات على تلك الحرب اللعينة".

تدّعي التنهد وهي تستدير قائلة بنبرة ملل:

_"كان لابد من الحرب ولكن مبكرًا يا ابنة الخال، على كلٍ هي أحاديث بيننا، فالسياسة لها رؤى أخرى.

وسرحت في ذلك البيت الصغير القريب بحجم حجرة، بدا مختلفا عن كل ما مر أمامها من المباني ربما لا حجارة الرخامية الزيتية اللامعة فتبدو ذات أهمية أو لذلك المجرى المحفور حوله دائريًا مدكك بنفس الرخام. توقعت أنه مجرد مجرى لتصريف حصتهم من الماء، وأشفقت على جفافه بنظرة آسفة

التفتت إليها نجوان تتأمل ملامحها كانت شاحبة شحوب المكان، عينان أرهقهما الحزن وشفتين تشققا فبدت الحمرة كطبقة منفرة تسعى للهروب، كل شيء باهت بها وحولها فصنعا لوحة باهتة، تستجدي الأسف أكثر من النفور لتضيف لها بحنان:

"وماذا عن حربك؟

تخبطت مشاعرها وغامت عينيها وتهاوت المشاهد بوعودها على رأسها وعصفت بها بعيدًا تضرب قلبها فيتهشم بالكامل مع لحظة إغماض عينيها، فدفعتها بعنف تتحكم بنفسها صامدة تجيب بثبات:- نجوت.

لم تعد نجوان تريد مضايقتها أكثر بأمور قد تعني لها انهيار وخاصة بهذا التوقيت وهي تسارع بالقول الثابت:

_"علينا فقط الانتهاء من الزفاف لم أعد أطيق المكان أرغب بالذهاب من هنا بأسرع وقت"

انتبهت سلمى لقولها، تيقظ فيها أمر هام وهي تسأل باهتمام:

_"ألم يظهر السائق بعد؟

مطت نجوان شفيتها مع هزة كتفيها بعدم علم، فتجاوزتها سلمى تبحث عن إجابة هذه المرة.

انتهت كل محاولتها لإقناع رؤوسهم المتيبسة بالكبر والعناد والفشل والحرج، فضربت الأرض تحتها بقدمها قهرًا، يوسوس القلق بصدرها بإلحاح فتهرب لتلك الحجرة تضرب حاجتها حولها بشحنة غضب فوق القلق، تنفس أخيرًا من غضبها المكتوم بكرامة وكبرياء لنصف ساعة كانت تقف أمامهم ثابتة تعصف الكلمات والإشارات الجارحة روحها، فتعمى عينيها، تطفو الدموع بهما

بمقاومة عجيبة، تقبض يدها حتى تبيض مفاصلها، فهرعت بخطوات منفعلة لخلف الستار تتجنب ظنونهم القذرة هنا بينها وبين نفسها.

على الأقل تستطيع نفسها تفهم السبب الحقيقي، دون إلصاق الإتهامات والشكوك، تعلم أنهم سيهاجمونها بالتكبر وجرمها القديم كما تضع أحكامهم المتسلطة بالجهل والظلم.

تصرخ نفسها بدفاع (كشفت عن حبي لأني ظننته حقيقي، لم يكن جرمي أني التزمت أمامكم بالجهر كحال من يرى الخفاء لا يليق بقيمته)

هطلت دموعها وهي تفكر بتخاذل ودهشة تتسائل بحسرة:-

هل العلن بالحب ووجوده تحول لنوعًا من الفسق والفجور لها حال انتهائه من طرفه، هل كان سيظل حظًا وجمالًا إن اكتمل؟!!

عيبه ليس الجهر به، بل نقطة اكتماله، استمراره وفشله حتى وإن اكتمل بفظاعة صاحبه، نقصه، غِشه، دناءة أصله!

هل صار حال الرجل متحكم في ذل المرأة وعزتها!

لعنته في كل حال

إنهم كعادتهم يتسلون بجرحها في كل مناسبة أو غير مناسبة بنظرات وحركات تفوح منها رائحة تمقتها منهم تندلع في أركان روحها نيران العجز فوق حريق الخذل، تضم صدرها بذراعيها تهدأ صخبًا لا قبل لها على تجاهله، تسقط على ركبتيها متكومة على الأرض وصفعات حديثهم المتهكم بالخارج يضرب أذنيها،

تكاد النيران تخرج من محجريهما وقول خالها الخشن يصفع أذنيها؟

(نقطع بلادًا للستر، لا يذلنا حال)

وقفت على قدميها تلملم تشتتها وتعيد ترتيب نفسها لتواصل صمودها من جديد بعزة نفس فتمسح وجهها بمنديلها بعناية كي لا تضيع تبرجها الذي اختفى وذاب بالحرارة والغضب والانفعال فرسم خطوطًا متعرجة سوداء وحمراء وخضراء، مؤكد لانتفضت لو أنها تملك مرآة بيدها، تشمخ بذقنها ترمق لا شيء حولها بترف، تثبت لنفسها قوتها وبعزة نفس لملمت كل انهيارها ببراعة، وللحظة عادت لثباتها الأول كجدار صلب.

تغمض عينيها هامسة لنفسها بهدوء:-

استرخى

صوت ضحكته يدق بقلبها وصوته يلفحها بنسيم دافئ وكلمة "أحبك" تدغدغ مشاعرها، واعترافه - لم أعد أريد - يذبحها سعلت بشدة تتحسس رقبتها وكأن أفكارها تنطلق تتولى التنفيذ بالفعل.

تسند جبهتها بكفها، تلك نقطة تغير كل شيء بعدها، بلى إن ما نمر به هو ما يشكلنا، نحن صناعة المِحَن لكنها تتمنى لو أمكنها محو ما مرت به وحاولت جاهدة ولم تستطع لسنوات يخنقها الحدث بحبل خفى وتفاصيله تلتف مرارًا كلما مرت بذاكرتها،

تأففت تستدير للعودة للخارج تميل لتحمل حاجتها، تصلبت مكانها، شيء بعيد خطف انتباهه عبر فتحه النافذة مالت سريعاً بحدث يستعيد قلقه، لتختلس النظر لبعيد باهتمام وتحفز هناك زحام يتقدمه عربة خشبية يدوية يدفعها ذاك الفتى الأسود الذي قادهم إلى هنا، عربة تحمل جثمان لرجل، رجل لا حياة فيه تركت الأشياء تسقط من يدها وأسرعت تقترب أكثر إلى النافذة تدقق النظر، رجل يغطي بفراش رث ملطخ بالقذارة، رأسه جانبه؛

ارتدت بشهقة مرعبة عند اكتشاف الحقيقة بأن رأسه ليس بجانبه، بل هي تزلزلت العربة عند منحدر شكله حجر بالأرض، فتدحرجت تلك الرأس بعيداً، رأس مقطوعة مشوهة تمامًا التصقت بها الأتربة حتى تشبعت، مال الصبي ببساطة يعيدها لمكانها بجانب الجسد العار المنتفخ.

انطلقت منها صرخة ذعر فأسرعت تكتم أنفاسها حين التقطت عينيها تلك الكف المدللة للجثة في أحد أصابعه خاتم أزرق

تراجعت تكتم أنفاسها بكفيها المرتعشان بساقين لا يستطعن حملها، والرعب يتطاير بعينها وجفت الدماء بوجهها مرة واحدة، وكادت تفقد وعيها لولا أنها دبت فيها قوة ما حين تذكرت أمها وأختها فتحركت بذعر سريعًا للداخل تضرب ستارًا يفصل بين الغرفة والمساحة الواسعة في المستودع.

اتسعت عينيها على آخرهما بارتياع تواجه عبر الباب الحديدي هجومًا من مسلحين غاضبين هاجموا المكان بغتة عبر باب المستودع الحديدي الذي يفصل بينها وبينه خمسة أمتار، تقف عند رأسه أمام الستار تتابع هجومهم الوحشي الذي طن له أذنيها مرة واحدة ثم صمت كل شيء ببطء؛ صرخات الذعر بطيئة خافتة قبل

أن تجز سيوفهم الرؤوس حولها لإخراسهم، فأخذوا يضربون أي شيء وكل شيء بعنف أمامهم.

حالة من الذهول أصابتها فأحست بأنها انفصلت عن المكان لآخر؛ طنين بأذنيها فقدت منه شعورها بالخوف، وسحابة مختلطة بالألوان الباهتة تضرب وجهها بينما ساقيها مقيدتان بالأرض ويد تمسح على رأسها بدوامة.

تقف متسمرة مكانها كل شيء يتحرك ببطء شديد والصرخات تحولت لأصوات كائنات مرعبة، ومرت رصاصة بجانب وجهها أصابت حرارتها أذنها ببطء، والصرخات تبدو مكتومة.

سحبت أنفاسها أخيرًا بقوة شاهقة، تتخلص من شعور أشبه بالغرق، تستعيد صحة سمعها وبصرها فوق الماء فهزت رأسها تستفيق من صدمتها والصرخات تعلوا، تعيد نفسها للمشهد.

ركضت دون النظر لشيء تقبض على كفي أمها وأختها بين ذعرهما فجأةً لتسحبهما خلف الستار بتلك الزاوية تواجه رعبهما في ملامحهما المختطفة، واختلطت همسات سلمى بالصراخ المرعب بالخارج تلهث هامسة بذعر:

"علينا الخروج من هنا"

وبحثت حولها بقلة حيلة علها تجد فكرة أو وسيلة، تراقب الخارج بعيون متسعة بهلع ثم تعود تتطلع بعيون هلعة لأمها وأختها التي قبضت على بطنها باكية برعب "سيقتلوننا

.. وسيموت طفلي، إنهم يطلقون النيران، إنهم يجزون الأعناق بسيوفهم إنهم...،،، أوقفتها سلمى تقبض على ذراعيها تقول بحزم والرعب يتقافز بكل خلية من خلاياها:-

" اصمتى، سننجو"

تشبثت الأم خائرة القوى بعزيمة ابنتها وعادت تشحب أمام انهيار الأخرى وسريعًا قبضت سلمى على كفيهما تدفعهما للقفز عبر النافذة للخارج من خلال الاعتلاء على السرير الذي تعلوه النافذة قفزوا ثلاثتهم عبرة، أخذت تركض للخارج بلا تخطيط يتبعاها بقلة حيلة والصرخات بداخل المستودع تزيدهم ذعر، تبحث بجنون حولها عن وسيلة للفرار، تبحث عن أي وسيلة وسط هذا الجحيم للاختباء.

صراخ وعويل يبدأ بالتلاشي داخل المستودع استطاعت أن تحسم نهاية أمرهم؛ أما هؤلاء فكما توقعت، مجهولين مجرمين، من اللحظة الأولى أدركت أن هناك أمر غير طبيعي، أمر فوق كل التوقعات التي تجاهلونها، أو كما حدث منذ شهور، تلك الحادثة المفجعة التي طفحت على وسائل التواصل الاجتماعي بالمنشورات على أسرة كانت مارة في طريقها للحصول على حصتهم من الماء، احتارت في التفاصيل ولكنها استطاعت أن تتيقن أنهم تعرضوا لأبشع التعذيب دون ذنب واليوم بكل غباء يسلمون أنفسهم لنفس المصير؛ كانت غبية لتتوسم فيهم الاستيعاب كان عليها أخذ أسرتها والعودة منذ حديث السائق عن خطورة المكان، ألم تقل الحكومة إلزموا بيوتكم حتى تستطيع مواجهتهم!

مواجهتهم!!! ولمَ لمْ تفعل منذ ذلك الوقت؟!

آآآه،،

انهارت أميرة تقبض على بطنها بألم وغثيان تصرخ بعذاب وهي تتوقف عن الركض

" أرجوكِ سلمي لا أستطيع سيموت طفلي."

اختنقت الكلمات في حلقها وهي تتطلع لحال أختها المرير

هل لزم هذا الحمل بعد زواج لم يمر عليه شهر!

وعادت تلوم نفسها على التفكير في هذا الشأن بذلك الوقت فبررت أنه يعيقها عن الركض، عن النجاة، بينما شحب وجه الأم فصارت كلوح خشب بعيون متجمدة، واعتصر قلبها لأجلهما وهي تسحبهما مجددًا خلف جنون ما يجري.

هناك بعيدًا ترى أكثر من عشرة رجال يحملون السيوف متأهبين للقتال، وخلفها ينتزع الملثمون الباقي حيًا من أفراد عائلتها خارج المستودع وصرخاتهم تجمد الدماء في العروق؛ كل ما حولها يدفع للاستسلام لكن...!

ركضت سريعًا عن يمينها لتلك الحجرة ذات الأحجار الرخامية، التي سبق وأن رأتها وأثارت تساؤلها، إحساس مريع من التيه جعل من ذلك الباب الخشبي أملاً أخيرًا.

ثلاثة أمتار يفصلهما عنه، بدوا أبعد ما يكون أمام عيونهم الباكية المذعورة وخلفهم الأقدام تتقدم نحوهم، تطاردهم بصرخات وحشية؛ دفعت بكل رعبها نفسها للمقاومة ، وكما رجت وجدت الباب متواريًا فدفعت أمها وأختها إليه بكل عزمها وكأنها آلة زمن ستنقلهم لمكان آخر للنجاة ومن بعيد التقتها الأعين فزادت صرخاتهم الوحشية غضبًا وجنونًا، زادتها ذعرًا فشعرت أنها على وشك أن تسقط صريعة الخوف لولا دافعها المهرول أمامها بكل ضعف لإنقاذ أسرتها.

ألقت أميرة نفسها داخل الحجرة بينما سقطت الأم أمام بابها تنزلق في فراغ مجرى الماء حوله فقفزت سلمي داخل الحجرة بمهارة برغم الرعب ولقّت ذراعيها من تحت إبط ذراعي أمها المتراخي وضمت صدرها بذراعين قويين وسحبتها صارخة بكل قوة، ثانية واحدة فرقت لتنجوا ساقها من البتر وسيف المهاجم يضرب أثر ساقيها بالأرض، ثم كان الباب يوصد في وجههم بذات اللحظة السريعة.

بكت أميرة بصراخ تضم ركبتيها لصدرها بارتعاش صكت له أسنانها بينما ظلت الأم على حالها متخشبة الملامح والجسد وكأنها على مقدمات جلطة بينما راحت تدور سلمى بذعر داخل الغرفة الضيقة تتفحص حاجتها سريعًا بذراعين ما زال رعب احتمال فشل حركتها الأخيرة يؤثر فيهما؛ تحاول تمالك نفسها علها تجد وسيلة للدفاع لهؤلاء الواقفين أمام الباب يطرقونه بإصرار.

ضرباتهم أصابت أميرة بالجنون فاعتلى صوتها المرتعب وهي تصرخ بتوسل:-

(أرجوكم اتركونا)

لم تستطع سلمى كبتها فالصراخ من كل جانب، وصار الوضع أضيق والنجاة احتمالًا ضعيفًا والموت أهون من هذا الرعب.

توقفت الضربات على الباب فضاقت عينيها المرتعبة لم تستطع التكهن لحركتهم بين هذا الصراخ والعويل فلفحت أختها نظرة حازمة مع إشارة حادة للتوقف، لكن لم يكن صوتها أشد ذعرًا من الخارج فأدركت...

نزلت على ركبتيها تضيق عينيها تتطلع عبر فتحات النافذة الموصدة بمسامير وحواجز حديديه من الداخل بشكل يوحي بالخطورة أكثر، كل شيء بالغرفة ليس طبيعي؛ موصد بشكل

غامض، صناديق بأحجام مختلفة، يغطيها القش الأصفر، وبراميل ضخمة هي للماء كما تعلم أو...

تحفزت كل حواسها لذلك الصمت المفاجئ خلفها عند الباب وترقبت أمامها عبر ثقب بالنافذة تسترق منها النظر تستكشف ما يحدث.

وقع قلبها أمام تلك الصرخات الجهورية؛ كانت للخال محمود وهم يجرونه من ساقيه بشكل مريع مزقت له ملابسه الجديدة، ومن خلفه الصراخات المعذبة لزوجته التي أخرستها ضربة واحدة من سيف هوي على رقبتها، قتلها فورا، فاندفعت دمائها بغزارة أمام بناتها اللتان لم يكفا عن الصراخ، شهقت سلمى منتفضة متراجعة عن الرؤية لا تصدق ما رأت ترتعش كل أطرافها باستسلام واضح للخوف، لولا حال أمها وأختها لصرخت ولكنها خشت إثارة مزيد من الذعر فكتمت بكفيها فكرتها سريعاً وعادت تتطلع لأصعب مشهد يمكن أن يري.

قرأت مرة عن أبشع طرق التعذيب التي أبدع الوحوش من البشر في اختراعها، فكان أبشعها تحديدًا بالنسب لها تلك الميتة البشعة الوحشية المتبوعة بكثير من الألم قبل خروج الروح أو هي السلخ.

هذا ما فعلوه لقد علقوا الخال أمام بناته وأخذوا في سلخه بشكل سريع متهور، يتفنون بإرعاب البقية قبل أن يمت أحدهم ويجز رأسه بكل بساطة، هذا ما حدث ولا يمكن لأحد تخيله، وسلمى تستمر بالتقيؤ وعيون أميرة تخشى السبب وهي تنكمش تغطي أذنيها بكفيها باكية بذعر وصرخات العذاب بالخارج تزداد انفعالا وبؤسا وهم مقيدون بحبال إلى الخلف، صرخات عنيفة وبكاء مرير

يختلط بصيحات التهليل من قومهم، هياج الفتى المراهق (رمزي) لفت نظرهم وسلمى تتوسل هامسة بعذاب عبر ثقب مشهدها:-

"اصمت"

كان رمزي في حالة جنون تام، صدمته جعلته لا يتوقف عن التخبط وهو يصرخ:-

"أيها الوحوش سأقتلكم، سأقتلكم.

تقدم إليه أحدهم بملابسه الرثة ووجهه البغيض وهم بسيفه إلا همسات الآخر سريعًا أوقفته يتسمر للحظات عاقدًا حاجبيه ثم مستدركًا بابتسامة صفراء قميئة ليعود عن عزمه ويتجه نحو رجاء التي سقطت أرضًا مغشيًا عليها بعد مشهد سلخ والدها ليجرها أمامهم من شعرها ويشير لاثنان آخران بالتحرك؛

لم تفهم سلمى وعيونها تنتقل سريعاً لأنفاس خالها الأخيرة وهو ينزف من رقبته، لم يقتلوه بل جعلوه يتعذب أكثر حتى فاضت روحه لبارئها باستسلام مريح، وقد ارتعش جسده فجأة بين خواره ثم هوت رأسه على صدره.

سالت دموعها بغزارة وحنت رأسها لا تصدق ما يحدث، إنه لأشد بشاعة من كابوس؛ وارتعدت وهي تجزع نحو أمها تلقي بنفسها عليها تضمها باكية تلهيها عن سماع الصرخات المعذبة بالخارج تغمض عينيها تطرد أبشع مشهد مر عليها، بينما هناك اتسعت عين يسرا بشرارة كالرعد وهي تُجَر لتلاقي نفس مصير أختها المعلقة أمامها من عنقها تهتز ساقيها بارتعاش قبل أن تتجمد تماماً لقد شنقوها وهي مغشى عليها ففاقت على الموت!

بشاعة لا يمكن وصفها، ورمزي صرخاته لا تتوقف تختلط بنحيب الطفل خالد المقيد جانبه بحبالهم الغليظة.

تهمس يسرا باحتضار وذعر وهي تجر على مشنقتهم:-

"طفلتي، طفلت ... "وسقطت مرة واحدة من بين أيدهم متسعة العينين.

ضحك الملثمون وتحسسها أحدهم ليقول بلامبالاة بلهجة عربية ركيكة متهكما:-

"توقف قلبها من الخوف"

صرخة رمزي هذه المرة بدت كإعصار ملفت للجميع انتفضت لها سلمى فأسرعت مرغمة تختلس النظر مجددًا لذلك المشهد البغيض، أجفلت تتطلع لجثة رجاء المعلقة ومن تحتها تتكوم يسرا بعينين فارقتا الحياة.

تناثر الوجع داخلها وهي تتطلع للأختين، كرهتهما ولم تتمنى يومًا إيذائهما، هما ورثة غباء ولكن بالنهاية هن أمهات. أرواح تزهق من عائلتها؛ جزت على أسنانها ببكاء العجز المرير.

صيحات الانتصار بالخارج من قبل هؤلاء المجهولين، خرقت أذنيها، دمرت أعصابها حطمت كل أمل في النجاة.

مر أكثر من خمسة وأربعون دقيقة والوضع مازال على أثره بالخارج.

تتطلع لوالدتها وشقيقتها بوجهيهما المصفر المنهك، تكاد لا تصدق ما يحدث برغم قلقها من البداية، تحاول جاهدة أن تبقى ثابتة ترغب بالسقوط على الأقل سترتاح من عبء هذا الخوف والترقب؛ تقفز تستمد قوتها من بشاعة مصير أسرتها حال استسلامهم، فتعبث بالصناديق حولهم، مقررة أن تطرد الخوف، تركز عقلها في إيجاد

سبل للمقاومة، لعل المساعدة تأتي من قبل أسرة العريس خلف غيابهم، تتساءل بذكاء عن امتناعهم عن الهجوم وكسر الباب أو دفعه أو حتى المحاولة، أو إحراق الحجرة بما فيها؟!

لابد وأنها تحوي شيئًا هامًا يعني لهم أكثر من مجرد بيت لحفظ حصتهم كما يبدو من خلال تلك البراميل، فالبيت غريب بشكل ما، وحفاظهم على عدم الاقتراب إليه هو من أبرز أسباب غرابته، تأكدت من وجود الماء بالبراميل وتفحصت الصناديق الخشبية تحت أكوام القش الأصفر، كانت الصناديق مُحكمة الغلق ولكنها أصرت وهي تسحب واحدًا تتفحصه جيدًا تقلبه لتجد وسيلة لفتحه، لكنها انتفضت عند عودة الضربات على الباب.

بكت أميرة بنحيب مزعج يائس:-

"سيقتلوننا، أتوا لحرقنا"

همست لها سلمي بضيق نفس:-

_"اصمتي ، لو أرادوا لفعلوها دون طرق الباب"

ضمتها ذراعي أمها وكأنها تهديها العناق الأخير باستسلام بغيض لنفس سلمى التي ضربت الصندوق أمامها بغضب، وقد فشلت بإيجاد وسيلة لفتحه.

قطع الجو المشحون بالانفعالات صوت خشن يقف إلى الباب صارخًا بنفس الركاكة:-

"افتحوا حالًا"

لم تجب بل أشارت لأمها وأختها بحدة بالهدوء ولم تمر دقائق حتى سمعت صوت أقدام تبتعد، اقتربت من الباب بخطوات حذرة تتصنت بدقة وضاقت عينيها في خفوت ثم سحبت طرف فستانها عند ساقيها ومزقته دائريًا فبات أقصر وهمت بفتح الباب فشهقت أختها فزعًا، ولكنها لم تبالي وفتحته سريعاً تلقي بما في يدها من

قماش فستانها للخارج فينزل فورًا السيف ليقطع فراغ كان يظنه هي، ففقد توازنه من عزم قوته التي ذهبت بالفراغ وسقط على وجهه فرمت نفسها أعلاه تستغل بطشه على وجهه تدك ظهره بركبتها وسحبت السيف منه وعادت للداخل بلهفة قادها الخوف وأغلقت بابها بقوة كالرياح، اتسعت عين أميرة على آخرها مما رأته، كيف استطاعت أن تقدم على هذا، بمثل هذه الجرأة!! وراقبتها بذهول وهي تتأكد من إحكام غلق الباب بملامح صارمة برغم رقتها المعهودة، لطالما كانت سلمى مختلفة وها هي نقطة اختلافها قدرتها على الثبات دومًا بمواجهة الضعف والعجز ولكن لم تظن أن ثبوتها سيتجاوز مشاعرها لقوة كهذه!

التقطت سلمى أنفاسها تستعيد نفسها المنهارة وصوت أميرة المذهول يضرب أذنها، كيف استطاعت!

لم تبال كثيرًا بسؤالها الذي لا إجابة له الآن أو لاحقا، لأنها لا تدري!

وأختها تتابعها بفستانها المُمزق فبدت كخارقة بهيئتها، تزينها قوة هي تخصها عن أي زينة، واستطاعتها لكمكمة الخوف والإقدام على إيجاد وسيلة للنجاة، وطرد أي إحساس بالعجز يتمكن منها كما فعل بأميرة والجميع، تهز رأسها بفكرة عنيدة.

ربما أبالغ، وأي أحد يستطيع فعل ما فعلت إلا - وحنت رأسها متمته باعتراف - أنا .

بينما تفحصت سلمى السيف بيدها غير مبالية تمامًا بأختها ورفعت عينيها لهدفها مباشرة بتصميم وضربته ضربة واحدة عظيمة، تخصها، تفجرت لها أخشابه السميكة، تتبعثر منه مادته، تتناثر في كل اتجاه - مادة بيضاء - أو...!

ضاقت عينيها وبرقت فيها نظرة حاذقة لتومئ لنفسها بالاستيعاب، تشد قامتها بشكل أثبت لأميرة ما خيل لها؛ إنها تبدو شامخة واثقة دافعة للطمأنينة وهذا كل ما تحتاجه لتضم والدتها بصدرها هذه المرة باطمئنان تستمده من قوة أختها الصامتة دوماً بضعف.

تكتشف بقناعة؛ ما الصمت إلا قوة في حقيقته!

من بعيد اعتلى صوت صرخات استنجاد بداخل المستودع تختلط بصرخات أخرى رجولية معذبة منهزمة، أوحت بكثير من العجز ورمزي ينهار تماماً بصرخاتها وعلى جانب جاء الرجل يعرج بخذل متوترًا يهمس للرجال أمام المستودع فنهره أحدهم وأسرع للداخل ثم خرج سريعًا يركض بوجه متفحم حانق تبعه بدقائق رجل أسود عار الصدر، ملىء الجسد، ببنطال واسع أشبه بالقراصنة محموم الوجه بملامح غليظة كريهة، تلاحقه الشياطين يطل من عينيه الحمراوين غضب مريع وشعره الخشن الذي اكتمل في هيئته لصورة الشيطان، وهو يتطلع للحجرة من بعيد بعيون مشتعلة از دادت احمر ارًا، غاضبة متوعدة تتوافق وحشية بصرخات نجوان المستمرة بالداخل، صرخات تحكى كل شيء، تصمت فجأة فتلفت انتباهه؛ فأشار لأحد الرجال جانبه بحراسة المكان والآخر يتحرى سبب صمت الفتاة فأسرع الشاب القميء على الفور يلهث ككلب ضال إلى الداخل مجددًا بكل لهفة، وهناك سال لعابه وهي تلملم الغطاء تستر جسدها الأبيض بانهيار، تئن بألم وعذاب، وقد تورم وجهها ورقبتها وما ظهر منها، تستعيد وعيها بمشاهد مرت.

توسلته وهو يقترب منها بعيون كان الغضب مستفحل بهما، يأمر رجاله بالخروج، فجروا باقي عائلتها - من بقي منهم حيًا - ورمزي يقاومهم باستماتة يصرخ باسمها بينما يرغمونه رجاله حملًا ليلقوه

خارجًا، تقف تواجهه بمفردها تتوسله بالابتعاد، تتوسله أن يعتقها من إيذاءه لكنه أمسك شعرها بين أصابعه يشده بقسوة يتشمم رائحته ويصرخ وكان الشيطان يتلبس بوجهه الوحشي قبالة وجهها الباكي:-

"اخرسى"

صرخت برعب تزيد من توسلها ليبتسم باستمتاع لصراخها ابتسامة صفراء مقيتة، ضاحكًا وهو يقيدها بجسده باستفزاز شيطاني قميء.

عادت تصرخ متحطمة باستعادة ما حدث وهي تستر جسدها بفستانها الممزق بانهيار، اقترب منها الحارس تسحبه نظراته إليها حتى بات قريبًا منها؛ بشع الرائحة ولمس شعرها بإصبعه فانتفضت بذعر الدنيا صارخة بعذاب، ليتذوق إصبعه باشتهاء فانكمشت مكانها جاحظة العينين تذرف دموعًا لا نهاية لها، تبدو بحالة صدمة أوقفت استيعابها وبكائها للحظات، تتطلع له دون فهم ثم تتطلع للاشيء حولها وكأنها تتساءل عن وجودها لتترك الفراش بهدوء، يسقط غطاءها فيذهل الرجل وتسحب تلك السكين من قلب التفاحة المنغوزة فيها جانبها بطبق الفاكهة كما قلبها، وتأخذ خطواتها للخارج تائهة كطفلة تبحث عن أمها في صباح عادي وهناك اتسعت عين رمزى على آخرهما بما تبقى فيهما من جنون وشهقت العيون أمام جسدها العاري من فستانها الممزق كما عيون سلمي المراقبة تتسع بقهر، بلع الجميع لسانه وساد الصمت المدكك بالألم ووقفت تتطلع دون حياة لعيون رمزي المحطمة وسكبت دمعتها الأخيرة ثم سحبت السكين الصغيرة مرة واحدة على رقبتها وسقطت، تهاوى جسدها أمامه وسال دمها يتحرر بغزارة من جسدها، جسدها المنتهك بوحشية تحرره بالموت أمامه، هذا حبها وتلك النظرة الأخيرة تحرر اعترافها إليه تجعل من قلبه جثة أمامها، لم تستطع أن تخبره يومًا عن مشاعرها فكفكفت محاولاته اليها، فتراجع خوف تهديده بالفقدان، خشت مصير سلمى بين عائلتها بحب هارب حب محكوم بالفجور إن لم يكتمل، كانت له أغلى وأثمن من أن يبلغ مقام قلبها شاب دعيّ نفسه بالفشل بينما تربعت هي في كل شيء بنجاح.. حتى تلك اللحظة التي جزت رقبتها لأجل شرفها؛ تستعمر مكانها بالقمة،،،

صرخ رمزي صرخة قهر مدوية سدت سلمى منها أذنيها؛ باكية بصراخ معذب، تستلم للألم أخيرًا لأجل نجوان، تلك الجميلة الطاهرة.

جمال يدمرها وقوة تطهرها؛ خبأت وجهها بكفيها تنتفض مرة واثنان وعشر، ببكاء مرير كم يلزمها وقت لتمحو تلك المشاهد من رأسها صرخات رمزي تعيد إليها كل بشاعة الساعات الماضية حتى توقفت صرخاته مرة واحدة بضربه عنقه لتطير أخيرًا رقبته تحرر روحه مع تهليل العجائز حولهم وهم يقبضون على الرضع بسعادة الحصول على الغنائم.

"افتحى الباب وإلا أحرقتك مكانك"

صوت خشن غاضب يخرج من بين أسنانه بلهجة ركيكة، يضرب النافذة الصامدة أمام ضربته الغاضبة.

تمالكت سلمى نفسها عكس أختها وأمها وهي تهتف بشجاعة "لا يمكنك أن تفعل"

جحظت عينيه في جنون وهو يستمع لقولها الجرئ، وأطرق السمع أكثر وهي تضيف بكل تحدي:

"أفعل وسيحترق قلبك."

استطاع لمس تحديها من نبرتها فمال برأسه نحو حواجز النافذة يقول لها بنفس اللهجة الركيكة مستجيبًا لتحديها

"وكيف سيُحرق وأنا أحرقك"

جزّ على أسنانه لضحكتها المتعمدة لزلزلته وهو يترقب ما يخشاه وهي تقول:-

"معى تجارتك الثمينة، وحصتك الأثمن، ما رأيك لو يختلطا"

ضرب فجأة بكفه الضخمة أخشاب النافذة الصامدة بحديد مسلح من الداخل، وبرغم هذا انتفضت سلمى دون وعي مبتعدة عنها، بينما ترجف أختها تترقب ما يحدث بعجز وذاك يصرخ بالخارج يفشل بتمالك نفسه:

"سأسلخك حية في كل الأحوال لتجرؤك، سواء لمستي تجارتي أو لا"

هتفت هذه المره باستغناء:-

"يكفيني أن أحرق قلبك أيها القذر"

سمعت زمجرته الثائرة وصرخاته في رجاله بتلك اللهجة الغريبة، تسرع مجددًا تترقب عبر ذلك الثقب، مر وقتاً طويلاً، ترمش بعينها كثيرًا تخشى أن تجفل لحظة يتمكن فيها من إيذائهم وقد أحرقتها مقلتيها من العرق المتصبب عبر جبهتها، لا تريد أن يفوتها من نوياهم شيء، مرت ساعات باتت كالدهر تتساءل عما ينويه، ولمَ تأخروا عن أي فعل؟!

بدأ الظلام يحل بالمكان وبدرت الفكرة تشع برأسها، أن خطتهم أساسها الظلام لذا يحومون حتى يأتي، حلقت الأفكار برأسها تدور بصورة سريعة، لم لم يقتحموا الباب من البداية لم يطرقونه فحسب هم قادرون على اقتحامه، بلي الباب قوي لا يستطيعون كسره ولكن هم لم يحاولوا حتى!! ، لِمَ يخشون الاقتراب لم لا يجرؤ أحد منهم على فعل ذلك حتى الآن ...!

ازدهرت فكرة برأسها، شعت لها عينيها، هذه الحجرة تعني لهم أمرًا آخر كما توقعت غير كونها تحفظ تجارتهم وحصتهم، ولِمَ هي بالتحديد تكون لهذا الغرض!؟

توقفت أفكارها مرة واحدة مع التقاط صوت خفيض يهمس إلى الباب وآخر ينهره، اقتربت بحذر كي لا تصدر أي صوت، صوت آخر اختلط مع مسمامعها خلال ذلك الهدوء الذي طغي بالمكان بعد جز رأس المسكين رمزي وحرق قلبه على حبيبته نجوان، أغمضت عنينها تتجاوز الحدث؛ لتركز في حركتهم القادمة وذلك الصوت المجهول يقترب، صوت زاحف و يبدوا وكأنه ...

انتفضت للخلف تصيح بذعر:-

" أدخلوا إلينا ثعابين"

تلقت أميرة الخبر بصراخ غير منقطع، والأم تنكمش في الظلام بركن الحائط تترقب الموت بالشهادتين، لكن سلمى صاحت وهي تحاول الرؤية من خلال ثقوب بالأعلى تتسلل منها أشعة الشمس الغاربة لتهتف بحزم:

"اعتليا البراميل بسرعة "

وقفا بحالة شلل

تتطلع أميرة لبطنها وللبرميل الذي يرتفع مترين عن الأرض، بينما الأم اسرعت للتنفيذ، تعافر بالمحاولة، لكن سلمى انحنت لها بحركة مفهومة لتعتلي على ظهرها وبالفعل استطاعت الأم ومن بعدها أميرة قفزت قفزة لم تبالي بتوجع أختها وهي تفعل لإنقاذ نفسها، بينما هتفت الأم بصوت مبحوح عاجز:-

"هيا سلمي اعتلي أيضًا"

قالت سلمي بثبات "سأفعل لكن اثبتا الآن "

وأمسكت طرف فستان أميرة المورد بالخرز بطريقة مبالغ فيها وشقته أمام دهشتهم لتهتف سريعًا بها تتوقع تكرار فعلتها

" هل ستفتحي الباب مجددًا؟

لم تجيبها بل ضاقت عينيها تتابع خط شعاع الشمس المتسلل عبر الثقب وقامت بفرد قطعة القماش المطرزة بالخرز محل سقوط شعاعها، وهنا انعكس الضوء بنقاط الخرز حولهم فأنارت الحجرة

بأكثر من وميض بانعكاس الشعاع يتفرق بكل حبة خرز، فأصبحت أكثر أمنًا، تتمكن من تحديد حركه الثعابين حولهم وصد أي هجوم.... على الأقل خلال الدقائق القادمة، ثم أخذت تتحرك سريعًا يراقبانها باهتمام وإعجاب وهي تفتح نفس الصندوق المحطم وتكبش من أكياسه تلقيها بإهمال في دلو جانبي ثم تحمله وتغرفه من أحد البراميل، اشتد الموقف ارتباكا والثعابين تتسلل نحوها وأميرة بانفعال تصرخ:-

"إنهم يحومون حولك"

همست لها:

"لن يؤذونني إن لم المسهم"

هتفت بها:

"أنت تتحركين ".. أنهم يقتربوا إليكِ .

لكنها لم تبالي إلا بما تفعله في لهفة وتركيز، فكاد الثعبان يقرصها لولا قفزتها السريعة أعلى البرميل أمامها مع شهقة أمها بقول:

"يــــــــــــــــا رب"

وهنا التفتت إلى أمها بنهاية قفزتها بابتسامة عجيبة، تعيد التطلع للمسافة بينها وبين الأرض... بعجب! كيف استطاعت!!

تتمتم شاكرة

"الحصال

تعيد استمداد قوتها من أمها بنظرة أخرى، قبل الإقدام على خطتها التالية، لا تعلم أمها البسيطة مدحورة الحق، كم هي مصدر قوتها، أساس صمودها، شحنت قوتها ثم أخذت تحرك الماء حتى ذابت المادة وهنا القتها نحو الباب بنظرة متجبرة ... اعتدل كبيرهم من

مكانه وعيناه لا تغادر ترقب الباب الذي سال من خلال فراغ أسفله الماء، ذائب فيه مادته البيضاء كبحر من الجير وصرخ صرخه قهر رغمًا تبسمت لها سلمى من الداخل، تضم قبضتها بتحدي وصدرها يعلو ويهبط انتظارًا لردة فعله، وصوته الثائر الغاضب المجنون يقترب، تخيلت ملامحه من خلال صوته لا شك أنه أشبه بالشيطان؛ فدفعت نفسها لتهتف بعزم:

"في كل مرة تحاول إيذاء عائلتي سأؤذيك، دعني أخرج في سلام وأحفظ حاجتك وإلا جعلتك تنحر عنقك حسرة عليها"

صوته القريب الملتصق للباب أرعبها وهو يقول بتوعد وغضب شديدين

"لن أريح روحك بل سأجعلك تتمنين الموت"

1110

انتبهت لصرخته الأخيرة، وتخبطه، وأقدام راكضة إليه بهلع لتحري السبب وهو يعتصر صارخًا بلهجته الركيكة القميئة

" لقد لدغني شيء، أنه ثعبان. لقد لدغني الثع... اااه"

صرخات متتالية تبتعد، استطاعت أن تحسم هذه الجولة من مقاومتها لتقل أخيراً بهدوء:-

" لا تنز لا لأي سبب، ولو قتلكما النعاس لتنز لا؛ فدعوه يفعل"

تربعوا ثلاثتهم على البراميل في استسلام تراقب سلمى إنطفاء الحبات المضيئة حولهما حتى انسحاب شعاع الشمس المتسلل للخارج تبقي ضوء خافت وكانت الشمس تعتذر لتغادر من حولهما فتنهدت سلمى مغمضة عينيها في رجاء.

بعد مرور أربع ساعات

مرت كالدهر صمت المكان بأكمله بدا الوضع آمنا لأميرة مريبا لسلمى، بينما استسلمت الأم فغفت مكانها تمنت سلمى لو استطاعت أن تغفوا قليلًا وتستفيق من هذا الكابوس، كلما أغمضت تراءت لها مشاهد الخال محمود ورجاء ويسرا ونجوان والفتى رمزي، تحسد أميرة أنها لم تحمل أي من هذه المشاهد في ذاكرتها، من المريح ألا تحمل ذاكرتك شيئًا مؤلمًا

الذاكرة تعبد الأحزان، ستذلك إن أختلت بك، سمعت صوت أقدام؛ أقدام كثيرة تدب الأرض دبًا أرادت القفز لتلقي نظرة لكنها تخوفت النزول فأرخت أذنيها وأغمضت عينيها لتوجه كل تركيزها بالإنصات.

إنهم يجتمعون مجددًا يتساوون بحلقة كما يفعلون ينصبون شيئًا لعرضهم، يتبادلون الحديث بلغتهم الغريبة، أنهم يستحضرون لعرض جديد، خفق قلبها من جديد بعنف فكرة واحدة تعلو برأسها

هل هما ضحايا عرضهم الجديد؟

انتفضت مع صيحات ركيكة

"نريد الماء نريد الماء يا إله، يا عظيم"

أجفلت لحظة تفكير أعقبتها بنظرة تحت ساقيها، أنهم يريدون الشرب، هؤلاء الوحشيون يعتقدون أن هذه الحجرة. ضريح!

أنارت الفكرة برأسها لذا لم يقتحموها ولم يجرؤ رئيسهم أن يأمرهم باقتحامها، لم يجازف بفضح مخططه، أنه يخدعهم بحفظ تجارته

بحجرة صغيرة يقدسونها يدس فيها بعض البراميل ليضمن ولائهم لحاجتهم.. إذن ها هو الأمر

أخذوا في التوسل والتضرع بالخارج طويلًا لحد النحيب باصواتهم الجهورة الصارخه للغة لا تفهم حروفها، من الجيد أنهم يحملون مشاعلهم فأضافوا للحجرة ما يكفي من الضوء ليساعدها في فكرتها عادت تكرر ما فعلته بحذر وقد انكمشت الثعابين في الخفاء أمام النيران فأسرعت تلقي أكوام الأكياس البيضاء التي استخرجتها من صناديقها ببرميلها مرة واحدة تحركه بطول ذراعها ليذوب وحاولت دفعه بكل قوتها ولكنه لم يتحرك من مكانه فعادت تحاول بكل طاقتها، فوجأت بكفين يدفعان بجانب كفيها صاحت

"أمي عودي مكانك حالًا.... رجاءاً"

لم تستمع الأم لرجاء ابنتها بل اخذت بالدفع تضغط بقوتها وسلمي تتطلع حول اقدام امها بقلق هامسه برجاء

" إن لدغتك الحيّة لن استطع مداواتك أرجوكِ أمي ساعديني وعودى مكانك"

هتفت بها فجأة بقوة لم تكن عليها يومًا:

"اصمتي سلمى وادفعي معي لتنفيذ ما تفعليه لقد صمدتي بنا لأكثر من عشر ساعات أظن هذا كافي لأثق في خطوتك التالية، لنعمل معًا، لن نظل خائفتين نرتعد بجانبك بينما تحومين حولنا لحمايتنا كخرفان الحقل. إن متنا فلنمت معًا ونلحق باقي العائلة وإن حيينا سأشكر الله على فعله "

عادت تتطلع للأرض حول قدمي أمها غير مبالية بقولها ولكن وجدت طريقة وحيدة لإنهاء الجدال وهو

الدفع معها.... دفعا بقوة رجل واحد.. هنا أصبحت ست كفوف تدفع البرميل باصرار، غير مبالين إلا بنجاح خطتهم وانسكب الماء دفعة واحدة، يتدفق بقوة للخارج من أسفل الباب فبدا كسد، ملء المجرى، صرخوا مهللين بغباء وأخذوا يملؤون منه حاجاتهم عبر المجرى المحفور أمام الباب، تحلقوا مهللين، يروون عطشهم سريعاً بأفواه جافة، وارتسمت ابتسامة ماكرة على وجه سلمى وهي تهمس:

"فلتشكروا عطايا إلهكم".

بعد ساعة وأكثر بدت مترقبة أكثر من قبل وهي تشارك أفكارها لهم هامسة بحذر:-

"لقد رأيتهم يتجمعون بلغ عددهم الخمسين، لا شك أنهم لبوا حاجتهم وشربوا تلك الماء المخدرة، أتمنى أن تنفق جثثهم حتى الصباح لكنها فقط ستعيقهم عن اللحاق بنا"

همست أميرة بتضجر:-

"هل تعنين أننا سنهرب. كيف؟!.. ببطني هذه، لا يمكن" أشاحت سلمي بعيدًا بعيون تلتف بمقلتيها حائرة تبحث عن شيء ما وهي تهمس :-

" إن لم نخبر الشرطة، سنظل هنا حتى يبدعون في تأليف موتة تناسب قهر قائدهم منا أنا فقط أبحث عن وسيلة اتصال "

هتفت أميرة بأسف

"تركنا هواتفنا هناك"

وأشارت نحو الفراغ تقصد المستودع

صاحت لها الأم بانفعال فاجئ الأختين وهي تصيح بها

"لم تتركيه من يدك لحظة والآن"!

ردت عليها باستياء:

"هل كنت تتوقعين أن أهتم به في ظل رقاب تطير، هو للتسلية أمي للتسلية وليس ابني كما تتهميني بنظراتك تلك، لقد سئمت منها كما زوجي"

توقفت سلمي عن البحث تردد باكتشاف

"زوجك!

وأسرعت تضيف بأمل:

" من المؤكد سيبحث عن غيابك، أنتِ تحدثينه طول الوقت من المؤكد سيقلق بغيابك، وسيفعل شيئًا، ربما يرسل لك أحدًا من عائلته لتقصي الخبر أو....

_لا يعرف

شهقت الأم تضرب على صدرها وطل من عين سلمى التساؤل، لم يلبث وأن تحول لإحباط شديد، وهي تغمض عنيها تعلم أفعال أختها والتي أردفت مبررة:-

"کان سیر فض"

تأففت سلمى تتجاهل أي خطر قد تجاوزه غباء أختها وهي تلقي بنفسها بقفزة واحدة نحو النافذة تتلصص المحيط

كانوا يترنحون حول كومة الأخشاب المشتعلة ببدائية، يطلقون صيحات منتشية بدا أغلبهم في حالة عدم وعي بينما تكوم الباقين بالأرض كالجثث، أفواه مفتوحة وأعين نصف مغمضة، يلتوون بالأرض كقطع الصلصال بعظامهم البارزة كأفرع الشجر المحترق عراة الصدور والسيقان بشكل قمئ أكثر مما هو مخيف، هؤلاء من ضمن القبائل التي تسللت إلى الأرض حين دب الخراب فيها فاستعمروا النجوع والطرق يحدثون جرائمهم كل محطة لهم ثم يهربون من السلطات كرجال الجبال والكهوف المطاردين بالسابق.

ولكن هؤلاء لا من الأرض ولا يتحدثون لغتها ولا يمتلكون شيء من الرحمة كجماعة - انتي بالاكا- المليشيات المتطرفة التي قامت بأبشع الجرائم أعمال عنف وقتل واغتصاب يمارسها ميليشيات مجرمة منتشرة في أفريقيا.

أنها جماعة (انتي بالاكا) المسيحية في دولة أفريقيا الوسطى والتي انتشرت غيرها بمختلف الدوافع خلال العشر سنوات الأخيرة قادمة إليهم بطرق غامضة، متسسلين بكثرة لا أساس لهم أو إنتماء، فقط هدفهم القيام بتلك الجرائم المروعة التي يمارسونها غير القتل من حرق الجثث وبتر الأعضاء وتدمير أماكن العبادة وتهجير السكان، وخطف النساء واغتصابهن وحرقهن ... أصبح الوضع مأساوي مخيف لا سيطرة عليه:-

"سأتسلل لأحصل على هاتف"

همست لهم تواجههم بقرارها:-

همت الأم باعتراضها ولكنها لم تسمح وهي تصر قائلة:-

" ساتسلل بينما هم منتشون وسأجد واحدًا لأبلغ الشرطة"

واحتدت نبرتها مع اتساع عينيها وهي تضيف بحزم:

"إياكم مهما حدث والخروج .. إياكم "

وهمت بالتحرك ولكنها توقفت تفكر للحظات ثم قالت آمرة

" اشيحوا بوجهيكما"

طل من عينهما التساؤل

فهمست هاتفه بنفاذ صبر "هيا"

أطاعاها بدون فهم، فأسرعت تنزع ثوبها الأزرق الممزق وتتطلى جسدها بمعجون من الماء والطين بالأرض من فعل البرميل المسكوب، ثم لطخت ثوبها بأكمله بعد أن نزعت أحد أكمامه وعادت ترتديه بعد أن تلوث بالطين فتحول لونه للأسود، وهذا ما أرادته، يراقبنها بعدم فهم يطمئنهم الثقة بها، بينما ضمت الأم قبضتها على صدرها تتطلع لها بخوف حقيقى بعينان تمطران رغمًا عنها تحاشت سلمى النظر إليها وهي تعقد جبهتها بإصرار، واقتربت للباب تختبر حراسته مجددًا بنفس الفكرة السابقة لكنها تراجعت، توقفت تدير شيء برأسها ، ثم تفحصت مجددًا هيئتها وكأنها تدبر شيء آخر وهنا فاجأت أمها وأختها بصرختها الخافتة المستنجدة وهي تلتصق بالباب، ازدادت حيرتهم بينما ارتاحت ملامح سلمى حين تأكدت من هدوء الخارج ومع ذلك أقدمت على نفس اختبارها الأول فتحت والقت بكمها الممزق وأسرعت للاختباء، لا وجود لأي رد فعل أو حركة، تأكدت من خلو المكان، فعادت تسحب السيف الذي سبق وحصلت عليه من أحد الحراس الذين اختفوا و حملوا نفسهم لحراسته هو، بعد ما حدث معه بل كان من حسن حظها إصابة ذلك المجرم، فبالتالي لم يعودا ينفذون أوامره على الأقل الآن، تسللت بحذر تختبئ تحت ظلمة الليل و هناك اترتعشت أطرافها أمام رؤيتهم يتجمعون حول النار، يشعلون قطع كبيرة من اللحم لها رائحة احتراق الشعر الكريهة ، لو التفت أحدهم لانتهي أمرها فوقفت بالظلام تلصق ظهرها بالجدار الضخم

لا يظهرها من سواد الليل شيء وأخذت خطواتها بحذر حافية نحو المستودع الذي خلى من حراسته، يبدو واضحًا أنهم ملتهون، لا يبالون بثلاث فئران، محبوسين بضريحهم يؤجلون إزهاق أرواحهم بموتة شنيعة، ينضمون حول النار لمشاركة طقسهم البائس حول النار، فتشجعت إلى الداخل تبحث برعب حقيقي عن وجود أي من أجهزتهم هنا وهناك لا تستطع السيطرة على ارتعاشة أطرافها، حتى وإن تحلت بشجاعة المقاومة إلا أن المواجهة تتطلب شجاعة مضاعفة، تفتش في حاجتهم الملقاة في كل مكان غارقة بالدماء، بقع الدماء تغطي الأرض وأثر لشريط من الدماء تعقبتها عينيها تستكشف نهايته، وسالت دموعها عند رؤية حذاء ميسا الجديد المقلوب الملقي جانبًا غارق بالدماء فأدركت بعذاب أول صريع سقط منهم بيد الوحشيون، وتراءى لها رغمًا مشهدها حين كانت هناك تزين شعرها تحاول لفت نظر رمزي، لطالما كانت ميسا فؤاده معلق بالجميلة نجوان

وعند اسمها شعرت بغصة تتربع بحلقها تمنعها من بلع ريقها تمسح دموعها بظهر كفها تعتذر لهم عن قلة حيلتها وكأن مقاومتها منحتها سلطة الدفاع عنهم فشعرت بمسؤلية قتالهم

التفتت للصوت خلفها البعيد يستكشف حقيقة ظلها ف تسمرت وهو يقترب إليها. جفت الدماء بجسدها كله وتسارعت دقات قلبها وتأهبت أمام صوت خطوات القادم يحاول رؤيتها من مكانها الخافت

كاد يسقط وهو يترنح نحوها فقررت الخطوة التالية بلا تراجع، وركضت نحوه بحيث فاجأته ورفعت سيفها وانزلته على رأسه قبل أن يستدرك، قصفت رأسه نصفين وتناثرت الدماء حولها حتى لطخت وجهها

انتفضت جثته أمامها مرتين، حتى سكنت تمامًا وسيفها يعلوه ينقط منه الدماء، ارتعشت كفيها لا تصدق ما حدث لقد قتلت روح "يا إلهي!

همست غير مصدقة تسقط على ركبتيها مرة واحدة في حاله صدمة متحجرة العينين لولا ذلك الصوت لاستسلمت للغثيان

(ببارتونا)

انتفضت مرة واحدة، وبلعت ريقها بصعوبة تحاول تمالك نفسها، تستمد من خوفها علة أسرتها قوتها، تعيد بمخيلتها نظرة أمها لها يوم أن هاجمها الجميع فتصدت لهم بقولها الضعيف لهم الكافي لها "أنا أثق بابنتي" وهنا وشدت قامتها تشهر سيفها بتأهب.

الصوت قادم من داخل تلك الحجرة خلف الستار، برغم شدة الخوف إلا أنها ميزت الصوت الكريه

ف تقدمت نحوه بخطوات مرتعشة تقسم على تمزيقه حتى ولو كانت نهايتها، تستعيد مشهد نجوان المدمر.

وعلى نحو آخر بداخل الضريح أخذت الأم ترتل الآيات برجاء طل من كل انفعلاتها وهي تترقب الباب بنفس العيون التي تبكي بصمت جانبها تلعن كذبتها تلوم نفسها تتمنى لو يعود الزمن ما تركت بيتها وأتت دون أن تخبر زوجها

"هو لن يسامحني حتى وإن نجوت"

التفت الأم لها عند تصريحها واندفعت صائحة:-

"اخرسي الآن، لا أتحمل أنانيتك هذه في ذلك الوقت، فكري بأختك، يعلم الله ما تواجهه الآن"

همست الفتاة بعتاب

"أمي أنا"

قاطعتها

"كفي عن أنانيتك، كلانا يعرف هذا جيدًا، اصمتي فقط الآن "

زمت أميرة شفتيها واحتقن وجهها، لتنساب دموعها أخيراً بصمت، قاومت الأم الاستسلام لاحتضانها فنزلت للأرض ببطء تبحث عن ذلك الثقب الذي تتخذه سلمى للمراقبة؛

وفي اللحظة التالية اندفع الرجال يضربون الباب بقوة وهم يصرخون صرخات أصابت الأم والابنة بالهلع فقفزت أميرة تحتضن أمها بذعر وذلك الصوت يصيح بعربية سلمية إلى حد كبير

"أخرجوا حالًا"

وغاب الصوت لحظات ليتقدم آخر صغير مرتعب، صوت انهار له كليهما.

حركت الستار ببطء، رائحة الحجرة كالجحيم، وجدته مستلقيا عاري الصدر ينام على بطنه في فراشه الرث، يتمرغ في أثرها، وهو يزمجر بحسرة غاضبة وهو يتمتم بزجل "شهية".

"لا، أمى، لا يمكنك أن تفعلى هذا سيقتلونك"

انهارت بالبكاء وهي تتعلق بثوب أمها وتلك تسحبه صارخة بمرارة "سيحرقون الصبي"

صرخت" يكذبون"

_"سيفعلون أنهم مجرمون وبلا وعي، اتركيني أنقذ الطفل لقد مات والديه ولم نستطع فعل شيء، لقد عشت خمسين عامًا وهو مجرد طفل لم يبلغ السادسة حرام.. حرام"

" ببارتونا"

عاد يصيح بصوته الغاضب يتقلب في فراشه والرائحة تزداد بشاعة، ظهرت منه عقدة ساقه الملدوغ وهو يفرك بفراشه بحدة لاعنًا بأفظع الشتائم

أيها ال ابن

لقد قتلته

انتفض معتدلًا يتطلع لصاحبه الصوت، لا يصدق ما يري، وهي تضيف بنارية:

" لا أعرف كيف سيستطيع تلبية نداءك بجسد دون رأس، لذلك سأرسلك إليه "

تجاوز صدمته، يعترف بداخله بشجاعتها التي تجاوزت قوة تهديداتها هناك بالفعل أمامه، وأتت إليه تشهر سيفها بوجهه، لكنه ضحك ساخرًا بنصف عين مفتوحة حمراء بشعة ليتفحصها بترف يمحض من شأن قوتها قائلًا "أحسنتى، أتيتِ لى بقدميكِ"

ومال يسحب شيء ما من تحت وسادته واثقًا من نهاية مصيرها على يديه، يلمح ارتعاشة يدها فيميل بوجهه متهكم، لكنها فاجأته حقًا بضربة أقنعته عن شجاعتها قسمت ساقه، صرخ لها صرخة ايقظت رجاله من تأثير المخدر وهم يتطلعون نحو المستودع مرة واحدة، وهي تقول له بقهر من بين أسنانها

" أعرف جيدًا، كيف أتعامل مع متعاليون حمقى"

بجنون راحت أميرة تضع كل ما تبقى من الأكياس داخل البرميل بلهفة وتفعل مثلما فعلت سلمي، تتولى مهمة هي مضطرة لها وهي تبكى بتوسل:

" لا يمكن، أمي، سنجد حل مثل سلمى، سنقتل كلانا، بداخلي طفل كذلك"

صراخ الطفل خالد المستمر أصاب قمة انفعالها فأبعدت عنها تهم بفتح الباب

متجاهله صرخاتها المتوسلة

"أمي لا، سلمى قالت لا، أنتِ تحبين سلمى أكثر، لو كانت معك هي ما ضحيت بها، لكن ليس لأجلي أمي... سيقتلوني بطفلي "

تطلعت لها الأم، لا تبالي باتهاماتها المنفعلة وصرخات خالد بالخارج تشق أذنيها... لتحسم أمرها

لم يكن ليستدرك الأولى حتى تلقى الثانية تجز الساق الأخرى جزًا، وتنثرت الدماء وصرخات الألم لا حدود لها، اختلطت بصرخات القهر والغضب

غضب ضاعف قوتها فأخذت توجه ضرباتها إليه دون النظر لموضعها. ضربات عنيفة، سريعة، تترآى لها فيها كل مشاهد الساعات السابقة، صورة نجوان تزيدها غصبًا، فأخذت بالضرب دون توقف تخلص روحها من كبت شديد حتى

(أحبك. أقسم أني أحبك)

ترآى لها وجه حبيبها المبتسم أمامها، وصوته الرخيم بأذنها، شعرت بالضعف يتسلل إليها وترققت نظرتها بعطف وحب غام ذلك البريق بعنيها فجأة وتبدل لبريق وحشي امتزج بالقسوة فرفعت سيفها عموديًا وفجرت ابتسامته لينغرز السيف بقلبه مباشرة وهي تصرخ لتتخلص من أسرها للأبد، أسر وقعت فيه لسنوات، لم تستطع تجاوزه للبدء من جديد، أسيرة قد تحررت، تصرخ صرخات مدوية بروح حرة أخيرًا

"مُت. مُت. مُت أيها الدنيء"

توقفت تلتقط أنفاسها، صدرها يعلو ويهبط بالانفعال، أحست بالرعب من نفسها من كل هذه السادية والقسوة التي بدت عليها الدماء تغمر الفراش بأكلمه، لم يعد له ملامح تُرى، غطى الدماء فراشه، ضربة رأسه حولت الفراش لبركة من الدماء

الدماء تناثرت في كل اتجاه تتراجع وهي تشهر سيفها الغاضب بعيون حمراء ووجه ملطخ مصدومًا ... لا شك أنها ذكرى دامية لن تُنسى أبدًا

ركضوا نحو المستودع يشهرون سيوفهم وسكاكينهم بتأهب زائف فقد سيطر عليهم المخدر بشكل ملحوظ، وهم يندفعون مرة واحدة ككقطيع من الغنم لداخل المستودع

يصرخون صرخاتهم المعهودة، نزعوا الستار، يحملقون في بركة الدماء أمامهم، لا يستطيعون تفسير المشهد المروع، من يجرؤ على هذا! و

انسحب لسان نور الفجر فجأة عبر باب المستودع الذي انغلق مرة واحدة .. يتطلعون بتساؤل بنظرات حيرة وارتباك فيما بينهم عن إغلاقه و

انتبهت حواسهم لتلك الرائحة النفاذة قبل أن

تترك شعلتها أرضًا، ولم يمر ثوان حتى تحول المكان بأكمله لصندوق مشتعل

تعالت الصرخات برعب حقيقي، وزادت بانفجار الجزء الأمامي المثلث للمبني الأرضي، ينهار على موقع جثة رئيسهم

بدت كالشبح الأسود يكسوها الطين والدماء من قمة رأسها حتى أخمص قدميها شعرها زاده الجفاف بشاعة بوقفتها المشدودة مكانها أمام المستودع تتطلع للنيران المحجوبة عنها ببابه الحديد، تنصهر جلودهم وهم يستغيثون لفتحه بيننا تقف متشفية بنظرة شرسة، أمام زعر من تبقي من القبيلة، صرخات استنجادهم و ضرباتهم المستميتة سلحتها بقوة أمام نظرة الرعب فيهم

رمقتهم بجانبها بنظرة بطيئة وحشية، يرتعد أمامها صف من النساء النحيفة البالية الملثمون خلف حجابهم الرث يقفون دون فهم ... تقف إحداهما بضخامتها المنفرة، تتابع بغباء تضم الطفلين الرضيعين على جانبي ذراعيها وكانت هذه القبيلة تعين مسؤليتها حسب حجم الفرد، وآخر من بعيد يقبض حول رقبة خالد بعيون مروعة

بدت بمظهرها وهي تتجه إليهم أشد رعبًا من كل كوابيسهم، اتخذت نحوهم خطوات ترفع سيفها صارخة بوحشية، رمى التعيس الصبي بعيدًا بخوف ومن خلفه تفرقت النساء لتهرب في كل اتجاه كخلية النمل، لكنها اتبعت تلك الغبية الضخمة بخطواتها الثقيلة، وخطفت منها الطفلين بذراع واحدة والأخرى تشهر بها سيفها بتهديد. وأشارت لخالد الذي لم يتعرف عليها فانكمش مكانه برعب عارم لا يليق ببرائته، فاقتربت تخطفه من ياقته من الخلف لتتراجع بمرآتهم بحذر نحو الضريح بتأهب وترقب، تسيير بظهرها ترقبًا لأي هجوم

دقت بكوع ذراعها باب الضريح لكنه انفتح لها بسهولة... بل كان مفتوحًا

هلعت إلى الداخل وانهارت أرضًا

كان الضريح فارغًا إلا أثر الدماء المسحوب للخارج، دون تفكير دفعت الصبى أمامها ووضعت الطفلين الرضيعين أرضًا، ثم

سحبت أحد البراميل وحملت الصبي برغم مقاومته لتضعه داخله ثم حملت الطفلين معه وقالت بلهجة جامدة آمرة حازمة لا تخلو من القسوة

"إياك أن تخرج"

لم يكن الطفل أن يطمئن أبدًا أمام هيئتها المروعة ونبرتها الحازمة القاسية، فأخذ يبكي ولكنها لم تبالي وهي تعيد غطائها، وقبل أن تغادر ضربت البرميل بسيفها ضربتين شقت بهما منفذ للتنفس، ثم تأهبت للخروج ولكن التقطت حركة ما، حركة اختبرت ذكائها، لتعيد قلبها لمكانه فأسرعت دون تفكير تفتح بلهفة غطاء البراميل بالجانب وابتسمت وهي تهمس للمتكورة به

" أحسنتي أميرة"

سعلت أميرة بإنهاك حقيقي وهي تلتقط أنفاسها

" كدت اختنق ولا أستطيع التقاط أنفاسي خوفًا"

لم تمنحها فرصة لقول المزيد فأسرعت تبحث في باقي البراميل، لم يكن سوى اثنين قد سبق وسكبت مائهم ولكنها تأملت ف وجود ثالت يملاء احتمالها بنجاة أمها، لكن قول أختها طعنها وهي تقول بصوت خانق داخل البرميل

"لقد خرجت أمي للبحث عنكِ فور هرولتهم عن الباب، كادت تضحى بي وبنفسها لأجل خالد، لولا...

لم تبالى بباقى حديثها وهي

تلتفت للقادم يركض للداخل برعب، وانفجرت أساريرها برؤية أمها وهي تهتدي إليها سريعًا بعناق شديد، تتلهف سلمى بالقول وهي تنزع نفسها من ذراعي أمها تقاوم الاستسلام له قائلة بقوة لا تخلو من التوسل

"ابقيا هنا لا تخرجي مجددًا أمي وانتبهي للصغار"

وأشارت ع البرميل جانبًا، تتطلع الأم نحو إشارتها تبتسم بعفوية وبهجة واضحة،

وأضافت سلمى بضعف تستجدي ثباتهم وهي تتحرك للخارج "سأجد وسيلة للهروب"

وقبل أي اعتراض فرت من المكان تأخذ الباب بيدها لتسرع الأم بغلقه خلفها، تسكن قليلًا متوسلة وهي تسند رأسها إليه تتمتم ببكاء توسلًا

"يا رب انجدنا "

اتبعت سلمى مسحة الدماء على الأرض راكضة حتى وصلت لكومة الخردة العالية خلف الضريح فبحثت سريعًا عن أي أدوات بجانب سيفها تسلح بها أسرتها، حال هجومهم للانتقام، تخشى أن الوضع أصبح أصعب، فهي لا تعلم عددهم بالفعل كل ما تعلمه أنها لا تستطيع الهرب بأكثر من خمس أمتار ركضًا بأم عجوز وبطن منتفخة ورضيعين وصبي، ارتعدت بخوف هز كل كيانها المحطم أثر ما حدث وما يمكن أن يحدث، تتمنى لو ينتهي كل هذا، قلبها يطلق تنهيدات متوسلة لكن عقلها يعيدها لتلك اللحظة شديدة الضيق

وقلة الحيلة وفي قمة توهتها تسمرت! لم تصدق تلك الكومة البيضاء المستسترة أمام ناظريها خلفها العروس الصغيرة تتوسل برعب بلغ حد ثقل لسانها

" أرجو كم، لا تقت تلوني"

اقتربت منها سلمى بذهول وتلك تتكمش مكانها أكثر، ضحكت بخفوت وما زال الذهول يملأ نفسها، فلم يظهر من انفعالتها سوى ابتسامة بيضاء واسعة بشعة مندهشة، تشبههم أقل تقدير في أولى احتمالات المختبئة المرعوبة أمامها، تحشر نفسها في السيارات المفكفكة حشرًا

مالت لها سلمى بهيئتها البشعة وهي تراقب تعابير وجهها المنهارة قائلة بحزم:

"إن أرادتي البقاء لزفافك التعيس فلتبقي مكانك يا هالة "

ازدهرت ملامح هالة الصغيرة عندما تعرفت على صوتها برغم هيئتها البشعة فانفرجت هاتفة ببكاء حار طفولي:

سلمي!

تلقتها بين ذراعيها تمسح على شعرها وهي تهمس:

"لا بأس أنتِ في أمان"

تشبثت الصغيرة أكثر بها لكن سلمى نزعت نفسها منها تبحث عن ضالتها باهتمام

ثم أشارت لها بإتباعها سريعًا وقبل أن تتحرك أوقفتها فجأة بإشارة حادة آمرة وهي تقول:-

"سيكون من الأفضل أن تتخلصي من هذه الكومة البائسة فلم أعد أطيقها حقًا، وقد تتسبب مجددًا في هلاكنا"

أسرعت هالة تنزع ثوبها دون نقاش وارتفع حاجبي سلمى باستنكار؟!

_هل حقا ترتدي جلبابًا قصيرًا تحته!

هزت رأسها تتجاوز الفكرة الساخرة وعادت تبحث حولها وهي تسارع الخطى ..

هتفت هالة بصوتها البريء هامسة وهي تتبعها تلحق خطواتها السريعة

_ نرید سیارة.

أجابتها سلمي دون أن تلتفت لها

_الحافلة بيننا وبينها مائة وسبع وخمسين خطوة

أردفت هالة باكتشاف:

لا لديهم سيارة نقل، رأيتها.

هنا التفتت إليها سلمى أخيرًا باهتمام تهم لسؤالها عن أهم ما يمكن أن تسأله الآن، إلا أنها توقفت وهي تشير بعيدًا بازدهار __ هي تلك؟

وأخيرًا أصبح لوجود أميرة فائدة غير الثرثرة عن حياة زواجها السعيد، فقادت بهم أخيرًا السيارة كما علمها زوجها وأخبرتهم! ، تقود بجنون لا تتطلع خلفها أبدًا تضع كل همتها في فكرة واحدة.. الخروج من الجحيم،،،

ضرب الهواء وجوههم تتكأ رؤوسهم على بعضها. كيف بإمكانهم تجاوز بشاعة ما حدث، لم تكن النجاة كاملة فقد جروا معهم مشاهد لن تنسى حتى الموت.

نظرة ضائعة بعين هالة أسرت قلب أم سلمى وهي تضم الطفلين ثم مسحت على ظهر هالة لترتمي تلك الأخيرة بدفئها تخفي دموعها المحسورة في عينيها.

أشرقت الشمس وبهتت الوجوه المرتعبة، وفجأة توقفت السيارة مرة واحدة، تندفع أجسادهم بعنف للأمام والزعر يعلو محياهم... يراقبون برعب حقيقي ترجل الكثير من الرجال من السيارات المقابلة وهبط الهلع بأعينهم وتعابيرهم؛

مرة واحدة حين هتفت هالـة....

حكيم!

وقفزت من السيارة تلتقي ذلك الشاب الأسمر القصير المتسائل وهو يقفز بالقول المنفعل

"ماذا حدث معكم؟ كنت ذاهب لإبلاغ الشرطة" قلقت للغاية، رمقته بنظرة مقيتة هائجة، وقبل أن يهم بقول المزيد قاطعته صارخة بجنون: اخرس.

عبس الشاب وبلع لسانه يترقب بتردد أن يضيف شيئًا لتتطلع إليه أخيرًا قائلة بخيبة سالت لها دموعها بغزارة

" لقد مرت أربعة وعشرون ساعة.. كم يلزم من الوقت كي تتحرك لأجلي، لقد ماتت كل عائلتي، لأجل هذا الزفاف اللعين تبًا لك "

وعادت للسيارة تشير الأميرة بالانطلاق بينما همست أميرة بإصرار "هل يمكنني أن أصدمه"

، لكن سلمى فاجئتهم بقفزة رياضية كابوسية لهيئتها البشعة من السيارة نحوهم تحمل سيفها، فتراجعوا جميعًا بتوتر، يترقبون بهلع ما ستقدم عليه، لكنها مطت شفتيها بلامبالاة وخطفت من أحدهما زجاجة الماء وعادت للسيارة ترمقهم بنظرة مزرية قبل أن تتجرع نصفها مرة واحدة، وتنطلق السيارة... بلا توقف

ذلك الضوء الساطع والموسيقى المريحة وتغير المشهد من الدمار والخراب إلى الأخضر والألوان، من الظلام للضوء كالعادة كي تعلن نهاية كل مغامرة بشعة دليل نهايتها وبداية للأمان لكن

لم تكن هذه نهاية الأمر هنا. بل ظل المشهد كما هو على حاله... يتطلع الطفل خالد لجانبي الطريق بنظرة منطفئة يائسة، يدير عينيه حوله...

طريق حار كالجحيم ووجوه باهتة، متخوفة، وأخرى وحشية تقبض على سيفها بترقب لأي باب يفتح من أبواب الجحيم... في أي لحظة....

هنا ضربت أميرة أحد الأزرار أمامها للمذياع بالسيارة لتقطع هذا الصمت القاتل ليعتلي الصوت بأهمية إخبارية

"السادة المواطنين، نجحت قواتنا أخيراً بضرب السد، نحن بمواجهة.

اتسعت عين سلمي بذعر وهي تردد بارتياع:

" فيضان "

عليك أن تدرك كونك إنسان أنك ملزم بمواجهة المعاناة أنها طقس من طقوس الدنيا عليك ألا تثق بالأيام حتما هناك موجة عالية ستدفعك بكتم أنفاسك

حاول ألا تَمُت."

تمت